



أحمد زكي أبو شادي

الشاعر الفؤجي

إعداد
الشيخ كامل محمد محمد عويضة

الاعلام من الادباء والشعراء

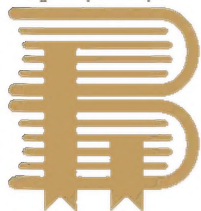
أحمد زكي أبو شادي

الشاعر النموذجي

إعداد
الشيخ كامل محمد عويضة

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

شبكة كتب الشيعة



shiaabooks.net

رابطه يديلي < mktba.net

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلکس: ٨١٥٥٧٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٦٠٢١٢٣ - ٣٦٦١٣٥

فاکس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢ - ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

التراث الفكري والفني لكل أمة أعز ما في ماضيها المجيد التليد، تستمد منه القوة والحياة والتجديد والتطور، وتتهدي به في دياجير الأحداث وتقيم عليه حاضرها المشرق الباهر، وتباهي به وتكاثر وتفاخر.

ولقد كان لتراثنا العربي الفكري والفني والحضاري تقدير عظيم لا يزال يثير الإعجاب، وينطق العلماء من الشرق والغرب بالشناء عليه، ولا عجب فهو كنوز ثمينة ضخمة متنوعة الجواهر، من الواجب علينا أن نتقّب عنها، وأن نزيل عن نفائسها الغبار، والأتركها نهياً للضياع...

ومن ثم نجد جدوى الحفاوة بهذا التراث العربي القديم، والإجابة عن تساؤل بعض الناس عن جدوى الحفاظ على تراثنا، وما نجشمنه عنه الكتابة في هذا الموضوع إلا ليكون في جملة إجابة عن ذلك السؤال... إن تراثنا مدين في تواصله وتكامل مقوماته إلى طوائف أربع من الناس:

أما الطائفة الأولى: فهي التي نرفع أيدينا تقديرأ لها، وإعظاماً لشأنها، وثناءً عليها، فهي طائفة العلماء والأدباء الذين أفنوا أعمارهم في التفكير المثمر والإنتاج الغزير، نثراً وشعراً وعلمياً وفناً، وكانوا يطربون لصرير أقلامهم كما يطرب الموسيقار للحن الآلة التي يعزف عليها. وهم والحمد لله يعدون بالعشرات بل بالمئات في أغلب الأمصار والعصور.

وأما الطائفة الثانية: فهي طائفة أرباب المكتبات العامة، وأصحاب المكتبات الخاصة، من ملوك وأمراء وأثرياء وعلماء، لأنهم صانوا كنوز التراث حتى وصلت إلينا تطالبنا بنشرها.

ولولا الكنوز التي صانوها ما عرفنا شيئاً عن تفاسير الطبري (٣١٠ هـ)، والزمخشري (٥٣٨ هـ)، والقرطبي (٦٧١ هـ)، وابن كثير (٧٧٤ هـ) وغيرهم. وما علمنا شيئاً عما جمعه البخاري (٢٥٦ هـ)، ومسلم (٢٦١ هـ)، وابن حنبل (٢٤١ هـ)، ونظراؤهم من علماء الحديث الشريف..

وما وقفنا على شيء من معاجم الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ)، وابن دريد (٣٢١ هـ)، وابن منظور (٧١٨ هـ)، وأمثالهم..

وما أحطنا بكثير أو قليل من شعر امرئ القيس (الشاعر الجاهلي)، وجميل بثينة (٨٢ هـ)، وأبي تمام (٢٣١ هـ)، والبحتري (٢٨٤ هـ)، والمتنبي (٣٥٤ هـ) وأشباههم..

وما درينا شيئاً عن نثر ابن المقفع (١٤٢ هـ)، والجاحظ (٢٥٥ هـ)، وأبي حيان (٤١٤ هـ)، والحريري (٥١٥ هـ)، ومن على شاكلتهم..

وما عرفنا طب ابن سينا (٤٢٩ هـ)، وابن النفيس (٦٨٧ هـ)، وأمثالها.

وما ألمنا بشيء من فلسفة ابن سينا، وابن رشد، وإخوان الصفا وأضرابهم. وهكذا يتجلى لنا أن تراثنا هو النهر الزاخر الفيض الذي يمدنا بالحضارة والنماء والازدهار..

فلذا ما أردنا أن نقرب إلى الأذهان ضخامة ما خلف أسلافنا من تراث فعلينا أن نتصور سعة العالم الإسلامي الممتد من شرقي الصين

إلى الأندلس، وأن ندرك أن هذا العالم الفسيح أثري بآلاف المكتبات العامة والخاصة التي تعمر كل مدينة أو شبه مدينة، لنجد في كل منها مكتبة أو مكتبات حافلة بالمؤلفات التي أورثنا إياها آباؤنا السابقون يتردد عليها المشغوفون بالقراءة والاطلاع والنقل، ولنجد في كثير من القصور مكتبات يحرص أربابها على تزويدها بأنفس الكتب وأندرها، ولنرى في كثير من المساجد مكتبات موقوفة مباحة للقراء..

بلغ عدد الكتب التي كانت تزخر بها هذه المكتبات في الأمثلة القليلة التي أستعرضها في السطور التالية:

بلغ عدد الكتب التي كانت في بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة المأمون (٢١٨ هـ) ببغداد أربع مئة ألف كتاب...

وكان في القاهرة دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الفاطمي العزيز بالله، قالوا إنها حوت أكثر من مليون ونصف المليون كتاب وكان بها أكثر من ثلاثين مخطوطة من كتاب العين وللخليل بن أحمد.

وبلغ من شغف العزيز بالله باقتناء الكتب أنه اشترى نسخة واحدة من كتاب الطبري بمئة ألف دينار.

وكان للعرب في الأندلس سبعون مكتبة عامة، منها مكتبة قرطبة التي ضمت نحو نصف مليون كتاب..

وكان في مكتبة الخليفة الأموي الحكم الثاني بقرطبة ست مئة ألف كتاب، وفيها أربعة وأربعون مجلداً للفهارس...

وقد جمعت مكتبة منصور بن نوح الساماني أمير بخارى نحو مليون ونصف المليون كتاب.

واشتملت مكتبة طرابلس الشام على نحو ثلاثة ملايين كتاب،

وكان لدى أصحاب هذه المكتبة وهم قضاة آل عمّار عدد كبير جداً من النساخ . .

وأما مكتبات الأفراد فهي كثيرة، منها مكتبة علي بن يحيى المنجم التي أباح للقراء أن يترددوا عليها وقد ذكر أبو معشر المنجم أنّه أقام بها زمناً قرأ ونقل . .

ومنها مكتبة الصاحب بن عباد التي كانت تحتاج إلى أربعمائة بعير لحملها، وكان فهرسها وحده يشغل عشرة مجلدات .

ولم تكن هذه المكتبات مقصورة على ما كتب باللغة العربية، بل كان في بعضها مئات من الكتب التي ألّفها العلماء باللغتين اليونانية والفارسية . .

ويكفي أن نعلم أنّ الخليفة المأمون [٢١٨ هـ - ٨٣٣ م] نقل إلى بغداد مئات من الكتب اليونانية التي كانت في القسطنطينية، وأنّه عقد الصلح مع الإمبراطور على أن يبيع له نقل ما يختاره من كتب العلوم القديمة المخزونة في بلاد الروم، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع، فأنفذ المأمون جماعة، منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلّم صاحب بيت الحكمة ويوحنا بن مأسويه وغيرهم، فنقلوا ما اختاروه، وكان مما اختاروه كتاب بطليموس في الرياضيات .

ولما صالح المأمون حاكم جزيرة قبرص طلب منه أن يبعث إليه بالكتب اليونانية التي كانت بالجزيرة فبعث بها، وأقام المأمون سهل بن هارون قيماً عليها .

وقد شارك في جمع الكتب واستنساخها بنو شاذان، وهم عمّاد، وأحمد، والحسن، وأنهم أنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلاد الروم، فتعلّم اليونانية، وجاءهم بطوائف من الكتب وغرائب

المصنّفات في الفلسفة والهندسة والموسيقا، والطب والأرثباطيقي ..
وكان ابن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئاً، فنقله، وكان بنو النجم
ينفقون على جماعة من التراجمة، منهم حنين بن إسحاق، وحبش
الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم، وبلغت أرزاق هؤلاء التراجمة خمس
مئة دينار في كل شهر...

ولقد ضمت المخطوطات التي في المكتبات العامة والخاصة علوماً
وفنوناً شتى، منها اللغة والنحو والصرف، ومنها التاريخ والتراجم
والجغرافية، ومنها الرياضيات والموسيقا، والطب والصيد، والفنون
الحربية، والفروسية... إلخ.

فإذا ما رجعنا إلى كتاب الفهرست لابن النديم [٣٧٧ هـ -
٤٣٨ هـ] وجدناه يقسم العلوم والفنون في عصره إلى عشرة أقسام،
ويقول إنه سيذكر في كتابه هذه الأصناف كلها، وأسماء مؤلفيها
وأخبارهم...

وجاء بعده أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده [المتوفي
سنة ٩٦٨ هـ] فألف كتابه [مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة]
وجمع فيه ستة عشر وثلاث مئة علم، وهي علوم كتب فيها العرب
والمسلمون.

وتلاه مصطفى بن عبد الله المعروف به حاجي خليفة [المتوفي سنة
١٠٦٧ هـ] فألف كتابه [كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون]
الذي سجل فيه أسماء نحو ثمانية عشر ألفاً وخمس مئة كتاب، وذكر
أنه رأى بعينه ستة عشر ألف كتاب منها.

ثم جاء التهانوي (١١٥٨ هـ) فألف كتابه (كشف اصطلاحات

الفنون) ذكر فيه أكثر من ألفي مصطلح في الثقافة العربية، وعرفَ كلًّا منها بدقة.

وهكذا يمتدّ الحديث عن المخطوطات التي كانت تعمّر المكتبات العامة والخاصة وقد سلم كثير من المخطوطات من عوادي الزمن وعوامل البل، وما تزال آلاف منها مفرقة في مكتبات العالم..

فمثلاً في مكتبة برلين أكثر من عشرة مجلدات كبار بأسماء الكتب العربية التي هي فيها، وفي مكتبة الفاتيكان أكثر من خمسة آلاف مخطوطة، وفي مكتبة الأسكوريال بمديريد أكثر من مئة ألف مخطوطة، وهكذا الحال من مكتبات موسكو، ولندن، وفيينا وغيرها..

وأما الطائفة الثالثة: فهي طائفة النساخ الذين سكبوا نور عيونهم على الأوراق فحفظوا هذه المخطوطات من الضياع والفناء، إذ نهضوا بأعباء النسخ، وبلغوا درجة عالية بتجويد الخطّ وزخرفته ودقة النقل وأمانته، سواء أكانوا ينسخون المخطوط من الأصل الذي كتبه المؤلف نفسه، أم من نسخ آخر منقولة عنه، ولم يكن تكرير العمل أو مشقته لتعدل بهم عن تجويد الخطّ ومراعاة أصول الضبط.

وأريد أن أوضح أن بعض النساخ كانوا من العلماء والأدباء الكبار، وكان آخرون من ذوي الوظائف العالية في الدولة، حتى إنهم تولّوا القضاء والوزارة، فمثلاً كان في مكتبة المأمون كثير من النساخ، وكثير من التراجم على رأسهم ثابت بن قرّة وحنين بن إسحاق. أذكر من أولئك النساخ على سبيل المثال:

- أبو علي، محمد بن علي بن الحسين المعروف بابن مقلة (٣١٦ هـ) كان جيد الخطّ، يضرب بخطه المثل، ولا ينازعه في ذلك منازع، وكان عند سيف الدولة بن حمدان خمسة آلاف ورقة بخطّ أبي

علي هذا، لأنه كان منقطعاً إلى بني حمدان سنوات كثيرة، يقومون بأمره أحسن قيام، وقد تولى الوزارة للمقتدر سنة ٣١٦ هـ .

- أبو عبد الله، الحسن بن علي بن مقلة (٣٣٨ هـ) كان أكتب من أخيه الوزير أبي علي، وقد ولّاه أخوه ديوان الضياع الخاصة، وديوان الضياع المستحدثة وديوان الذار الصغيرة، وكان أبوهما الملقب بابن مقلة كاتباً مليح الخط .

- أبو سعيد، السيرافي النحوي الحسن بن عبد الله المرزباني (٣٦٨ هـ) كان عالماً كبيراً تولى القضاء ببغداد، وكان زاهداً لم يأخذ على القضاء أجراً، أفتى في مسجد الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة، فما وجد له خطأ .

كان أبو سعيد يعتمد في نفقاته على أجر النسخ، وكان لا يخرج من بيته إلى مجلس القضاء ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرتها عشرة دراهم تقوم بمؤنته ثم يخرج إلى مجلسه . وله مؤلفات كثيرة منها :

(١) شرح كتاب سيويه .

(٢) شرح مقصورة ابن دريد .

(٣) وكتاب أخبار النحويين البصريين .

- علي بن محمد بن عبيد الزبير الأسدي (٣٤٨ هـ) صاحب الخط المعروف بالصحة، المشهور باتقان الضبط، وحسن الشكل، كان من أجل أصحاب العلامة ثعلب، ومن جماعي الكتب ومحبها، وله تأليف كثيرة .

- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٤ هـ) كان إماماً في العربية والأدب، وله مؤلفات كثيرة .

- ابن البواب، علي بن هلال (٤١٠ هـ) صاحب الخطّ المتقن والأدب الفائق، وكان نائراً وشاعراً وقبياً على خزانة كتب بهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز.

- أبو حيان التوحيدي (٤١٤ هـ) كان يحترف الوراقة، ولما اتصل بالصاحب بن عباد قال له الصاحب: الزم دارنا، وانسخ هذا الكتاب، فقال أبو حيان: أنا سامع مطيع.

ثمّ شكّا لبعض الناس أنّه جاء من العراق إلى الصاحب ليتخلص من حرقة الشؤم فإنّ الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة، فنقل هذا الكلام إلى الصاحب كله أو بعضه أو على غير وجهه فتكرّر لابن حيان.

وحدّث أبو حيان فيما بعد فقال: قدّم إليّ نجياح الخادم - وكان ناظراً على خزانة كتب الصاحب - ثلاثين مجلّدة من رسائل الصاحب، وقال: يقول لك مولانا، انسخ هذا، فإنّه طلب منه بخراسان، فقلت بعد ارتياد (تدبر وإمعان): هذا طويل...

- موهوب بن أحمد بن الحسن الجواليقي (٥٣٩ هـ)، إمام اللّغة والأدب، جميل الخطّ، تنافس الناس في الحصول على خطه، والعجب به.

- كمال الدين علي بن حمزة البغدادى (٥٥٦ هـ) صاحب الخطّ السلس غاية السلاسة على طريقة علي بن هلال بن البواب، وبخاصة علم المصاحف فإنّه لم يكتبه أحد مثله فيمن تقدّم أو تأخّر (حسب علمي)، كان من الأعيان الأمائل، ولآه الخليفة العباسي المسترشد الحجابة، ووكله وكالة مطلقة، ثمّ ولّاه الخليفة المقتضي لأمر الله، صدريّة المخزن.

- وأما الطائفة الرابعة: فهي طائفة المحققين الذين نهضوا بنشر

هذا التراث بعد ظهور المطابع، فصَحّحوا نسخته، وقابلوا بعضها ببعض، وأكملوا ما نقص، وشرحوا ما غمض، وعقبوا بما ينبغي أن يعقبوا به، وفهرسوا الكتب فهارس متعدّدة، تيسّر البحث والاطلاع، وعزّفوا بالمؤلفين ومناهجهم، نذكر من هؤلاء:

- أحمد تيمور باشا (١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ هـ) الذي احتوت مكتبته على اثني عشر ألف كتاب ومخطوط.

- وأحمد زكي باشا (١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ هـ) فقد جمع أكثر من ستة آلاف مخطوط والذي قام بتحقيق كتاب، «أنساب الخيل» لابن الكلبي، «والأصنام» لابن الكلبي أيضاً، وقد طبعا بمطبعة بولاق سنة ١٩١٤ م (المطبعة الأميرية الآن)، ولعلّ هذين الكتابين مع كتاب «التاج» للجاحظ الذي حققه أيضاً، من أوائل الكتب التي كتب في صدرها كلمة «بتحقيق» كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق، مع استكمال المكملات الحديثة، من تقديم النص إلى القراء، ومن إلحاق الفهارس التحليلية، ويضاف إلى ذلك أنه أوّل من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة، في المطبوعات العربية، وألّف في ذلك كتاباً، سمّاه «الترقيم في اللّغة العربية». طبع في مطبعة بولاق سنة ١٩١٣ م، ومما حققه أيضاً، كتاب «نكت الهميان في نكت العميان» لصلاح الدين الصفدي، ونشره عام ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م.

ومن الذي قاموا على حراسة العربية، وجاهدوا في سيلها، وكشفوا عن جوانب فذة منها هؤلاء الأعلام:

أحمد محمّد شاكر، ومحمود محمّد شاكر، وعبد السلام محمّد هارون، والسيد أحمد صقر، وعبد العزيز الميمني الداجكوتي، وأحمد

راتب النفاخ... وغيرهم.. وغيرهم.

ولا ننسى تلك الهيئات الكبيرة والكثيرة في مصر وفي العالمين العربي والإسلامي، كالجامعة العربية، والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والعلوم والفنون والجامعات والمعاهد العليا ومجامع اللغة العربية، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.. وغيرهم.

فقد بذلت جهوداً حميدة مشكورة في إحياء التراث وتحقيقه، ونشر هذا التراث الذي تعنى به كانت له آثاره العظيمة في نهضة أوروبا، لأنه هو الأساس الذي قام عليه المذهب العلمي التجريبي..

وقد سرت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا في عدة غدران، منها إسبانيا وصقلية وإيطاليا، ومنها الحروب الصليبية، وذلك أنه منذ سنة (٥٥٥ هـ / ١١٣٠ م) بدأ مكتب للتراجمة في طليطلة ينقل - برعاية رئيس الأساقفة - أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية..

وحسبنا أن نشير إلى أن علم الضوء مدين لكتاب (المناظر) للعلامة ابن الهيثم. كما أن أصول الرياضيات مدينة للعلامة الخوارزمي، وإليه ينسب علم الجبر. وكما أن أصول علوم الهيئة والنجوم والفلك ترجع إلى كتاب (القانون) للمسعودي، كذلك كان لكتب ابن سينا في الطب أثرها العظيم إلى أواخر القرن الثامن عشر.

ولقد قضت أوروبا ثلاثة قرون، من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر وهي تترجم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية، ولم تقتصر على مؤلفات ابن سينا، وابن رشد، والرازي ونظرائهم، بل إنها ترجمت عن العربية كتب اليونان التي كان العرب قد ترجموها، مثل كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس،

فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاث مئة كتاب.

ولم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر عالم لم يستسخ كتب العرب ولم ينتفع بها، ومن الذين استسخوا كتب العرب وانتفعوا بها روجر بيكون، وألبرت الكبير، وتوماس الأكويني، وغيرهم، قال رينان: إنَّ ألبرت الكبير مدين لابن سينا، وإنَّ توماس الأكويني مدين لابن رشد.

وقد ظَلَّتْ ترجمات الكتب العربية ولا سيَّما الكتب العلمية هي المصدر الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات أوروبا قرابة ستة قرون.

وبفضل هذه الترجمات عرف الغرب كتب اليونان التي ضاع أكثرها، مثل كتاب جالينوس في الأمراض السارية، وكتاب أرسطو في الحجارة، وكتاب أبولونيوس في المخروطات، كما ذكر الدكتور لوكلير في كتابه (تاريخ الطب العربي)، وقد عَقَّب جوستاف لوبون على هذا بقوله: «إذا كانت هنالك أمة نَقَرُ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان». فعل العالم أن يعترف للعرب بعد الإسلام بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة، قال ليبري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخَّرت نهضة أوروبا عدة قرون.

فإذا ما رجعنا إلى ورق الكتابة حدَّثنا التاريخ بأنَّ العرب عرفوه من الصين في القرن الثاني للهجرة، لكنهم لم يلبثوا أن أنشأوا المصانع لإنتاجه منذ القرن الثالث في مصر والأندلس والمغرب، وبلغت صناعة الورق على أيديهم درجة عالية من الجودة سواء أكان أبيض

ناصرماً أو ملوناً وعن العرب نقلت أوروبا هذه الصناعة في القرن
السادس للهجرة، إذ كانت حضارتهم تعمّر الأندلس وإيطاليا وجنوب
فرنسا.

وكتبه،

كامل عمّد عويضة

مصر. المنصورة. عزبة الشال

ش جامع نصر الإسلام

أحمد زكي أبو شادي

١٨٩٢ - ١٩٥٥ م

(١)

١ - حياته :

وُلد أحمد زكي أبو شادي في ٩ من فبراير سنة ١٨٩٢ بحي عابدين في القاهرة لأب كان عامياً وخطيباً مفوهاً، اشتهر بمواقفه الوطنية، هو محمد أبو شادي، ولأم كانت تنظم الشعر وتشدوه هي أمينة أخت الشاعر مصطفى نجيب. فالجو الذي نشأ فيه كان جواً أدبياً. وقد اختلف على شاكلة لداته إلى المدارس الابتدائية فالثانوية، وتفتحت فيه مبكرة مواهبه الأدبية والشعرية، إذ لا نصل معه إلى سن السادسة عشرة حتى نجده ينشر طائفة من شعره ونثره بعنوان: وقطرة من براح في الأدب والاجتماع، ولا يلبث أن يلحقها في العام التالي بقطرة ثانية، ويتبعهما بقطرتين أخريين من النثر والنظم.

وتتضح في هذه الكتب جميعاً ثقافته الموسوعة بالأدب العربية والغربية وإحساسه بمشاكل قومه السياسية والاجتماعية ومشاكل الشعر العربي في المادة والشكل والمضمون. ونراه معجباً بخليل مطران وبأراء «برادلي» أستاذ الشعر حينذاك في جامعة أوكسفورد، ويترجم بعض أشعار غربية، ويعرض لبعض الرسامين، وكأنه يضع تحت أيدينا المؤثرات التي ستظل تؤثر في روحه وفي شاعريته.

ومن أبريل من سنة ١٩١٢ أرسله أبوه إلى إنجلترا ليدرس الطب، وأتم هذه الدراسة في ديسمبر من سنة ١٩١٥ وظفر بجائزة «وب» في

علم «البكتريولوجيا» أو علم الجراثيم. وظلّ هناك يشتغل بهذا العلم نحو سبع سنوات، وفي أثناء ذلك تيقظ اهتمامه بتربية النحل، وأسس جمعية له، وأسس بجانب الجمعية مجلة عالم النحل «Bee - World». وعنى بالتصوير كما عنى بالشعر، وكأنه كان هناك خلية نحل دويماً ونشاطاً. وقد أخذ يعمّق معرفته بالأدب الإنجليزي وغيره من الآداب الغربية، وخاصة النزعة الرومانسية التي كان قد أعجب بظلالها عند خليل مطران، فعكف على شللي وكينس وأصراهما من شعراء الوجدان الفردي. وأتقن الإنجليزية بحيث أخذ ينظم بها، غير أنه لم ينس وطنه وقومه، فكان يرسل بمقالاته وأشعاره إلى الصحف المصرية. وأنشأ جمعية آداب اللّغة العربيّة، وأخذ يجمع أبناء وطنه حوله في النادي المصري بلندن، ويتحدث معهم في شؤون بلاده، وتنّهت له الشرطة هناك، فضيّقت عليه تضيقاً جعله يؤثر العودة إلى وطنه ومعه زوجته الإنجليزية في ديسمبر سنة ١٩٢٢.

عاد أبو شادي إلى مصر بنشاطه الجَمّ، فلم يمض عليه شهران حتى أنشأ «نادي النحل المصري» الذي حيّاه شوقي بقصيدته المعروفة «ملكة النحل». وفي أبريل من سنة ١٩٢٣ تولى إدارة قسم «البكتريولوجيا» في معهد الصحة بالقاهرة. ودار العام فنقل إلى السويس ثم إلى بورسعيد فالإسكندرية ولم يمكث طويلاً خارج القاهرة فقد عاد إليها في سنة ١٩٢٨. وكان في كل مكان يحل فيه يؤسس الجمعيات كجمعية رابطة مملكة النحل و«الاتحاد المصري لتربية الدجاج» و«جمعية الصناعات الزراعية» و«الجمعية البكتريولوجية المصرية». وبجانب هذه الجمعيات كان ينشئ المجلات التي تخدم أهدافها مثل «ملكة النحل» و«الدجاج» و«الصناعات الزراعية».

وكان في أوقات فراغه يقبل على نظم الشعر في سرعة شديدة،

فكثرت إنتاجه الشعري كثرة مفرطة، وما نصل إلى سنة ١٩٣٢ حتى نراه يؤلف جماعة أبولو التي تحدّثنا عنها في غير هذا الموضع، والتي ظلّت قائمة إلى سنة ١٩٣٥ وكان لها أثر كبير في نهضتنا الشعرية حينئذٍ، إذ أُسّس باسمها مجلّة فتحت صدرها للشباب وغدّتهم بآداب الغرب وآراء نقاده من الشعر والشعراء. وكانت مصر في هذه الأثناء تحتاز محتتها بصدقي، إذ كان يحكمها بالحديد والنار تسنده حراب الإنجليز الغاشمين، فانطوى شعراؤنا على أنفسهم متغنين بشعر رومانسي حزين. ويظهر أن كوارث مالية حفّت بأبي شادي، فرأيناه في بعض أشعاره يفرّغ إلى صدقي الجائر ومليكه الطاغية. وهي سقطة يشفع فيها لأبي شادي شعره الوطني الكثير الذي ناصر فيه أحرارنا وزعماءنا الشعبين منذ مصطفى كامل.

وغضّي مع أبي شادي إلى سنة ١٩٣٥ فتنفّض جمعية أبولو وتحتجب مجلّتها، وقد أخرج من بعدها مجلّتي «الإمام» و«أديب» ولم يكتب النجاح لهما. ويظل في القاهرة إلى أن تنشأ جامعة الإسكندرية، فيختار أستاذاً «للبيكرولوجيا» فيها. وتتوفّى زوجته، وكأنّه ضاق ذرعاً بالحياة بعدها في موطنه فيرحل في سنة ١٩٤٦ إلى أمريكا. وهناك عاود نشاطه، فاشترك في الأندية الأدبية وحرّر جريدة «الهدى» العربية، وعمل في «صوت أمريكا» وأُسّس «جماعة منبرفا» على غرار جماعة أبولو، ونشر ديوانه، «من السماء». وما وافاه القدر سنة ١٩٥٥ حتى كان قد أعد للطبع أربعة دواوين، هي: «من أناشيد الحياة» و«النيروز الحر» و«الإنسان الجديد» و«إيزيس».

وحياة أبي شادي على هذا النحو مكتظة بالنشاط، فقد أُسّس كما رأينا جمعيات ومجلاّت مختلفة، وكتب مقالات أدبية وعلمية كثيرة، بالإضافة إلى ما كان يذيعه من محاضرات في أجوائنا الأدبية وأحاديث

في «صوت أمريكا». وقد نقل إلى العربية من الإنجليزية غير قصيدة ومقطوعة. كما نقل رباعيات عمر الخيام وحافظ الشيرازي، ومن مصنفاته العلمية: «تربية النحل» و«أوليات النحالة» و«الطبيب والمعمل» و«إنهاض تربية النحل في مصر» و«ملكة الدجاج» و«ملكة العذارى في النحل وتربيته». ونشر له بعد وفاته ثلاثة كتب، هي: «دراسات إسلامية» و«دراسات أدبية» و«شعراء العرب المعاصرون».

٢ - شعره:

لعل عصرنا لم يعرف شاعراً كثر إنتاجه الشعري على نحو ما عرف ذلك عند أبي شادي، إذ كان الشعر يتدفق على لسانه منذ نشأته تدفقاً. وأتاحت له ثقافته الواسعة بالأدب الغربية أن يطلع على أنواع الشعر هناك من قصصية وغنائية وتمثيلية وعلى مذاهبه من واقعية ورومانسية ورمزية. ومن ثم مضى يتأثر في شعره بكل هذه الأنواع والمذاهب، وإن كنا نلاحظ غلبة المذهب الرومانسي عليه، وقد اجتمعت ظروف كثيرة دفعته إلى المعيشة الفنية فيه دفعاً، إذ اتصل مبكراً بأكبر من تأثروا من شعرائنا بهذا المذهب في مطالع القرن، ونقصد خليل مطران الذي يسميه في غير قصيدة أستاذه، وهام في حديثه بفنائه تدعى زينب، غير أنها هجرته، فانسكب الألم في قلبه ومضى يتغنى إلى آخر حياته. وكان مما ضاعفه في نفسه البؤس الجاثم على وطنه بسبب تسلط الإنجليز وظلمهم وطفيتهم، وأيضاً ضاعفته حملات شعواء على شعره، جاءت من عدم تأني في صنعه. فعاش يهجر الألم والحزن والحب المحروم باحثاً عن عزاء نه في الطبيعة والاساطير القديمة.

وما لا شك فيه أن أبا شادي بثقافته الواسعة ومواهبه الشعرية كان

معداً لأن يحتل منزلة رفيعة في شعرنا المعاصر، غير أنه كان متعجلاً، لا يستقر عند موقف في الحياة ولا في الشعر، بل يتقل من موقف إلى موقف في سرعة شديدة، وهي سرعة أصابت معانيه بالضحولة وحالت بينه وبين الافتتان في الفكر والخيال. ومن ثم كانت كثرة أشعاره مغسولة من كل وميض للذهن إلا ما جاء نادراً وفي الحين بعد الحين. ولم يأت ذلك ذلك من سرعته في نظم الشعر وحدها، بل أتاه أيضاً من أنه ورع نفسه في اتجاهات الشعر المختلفة على شاكلة توزيعه لها في حياته العملية، بحيث كانت له شخصيات متعددة فهو طبيب وهو بكتريولوجي، وهو يهتم بتربية الدجاج ويملكة النحل، كما يهتم بتأسيس الجمعيات المختلفة وإخراج المجلات العلمية والأدبية. وهو على هذا القياس من شعره إذ حاول أن يجمع فيه بين الشعر القصصي والشعر الدرامي والشعر الرومانسي الحزين والشعر الصوفي والشعر الوعظي والشعر الفلسفي والشعر الواقعي والشعر الرمزي، والشعر المرسل، والشعر الحر. ولم يكف بفن الشعر إذ ضم له عناية بفن التصوير والموسيقى، فتعددت اتجاهاته، وكثر ما يحمله من أدوات، إذ كان يحمل في يد مبضعاً ومجهرأ ومجالات علمية وفي يد قلماً وريشة وآلة موسيقية ومجلات أدبية وربة الشعر توحى إليه بين ضجيج المعامل وطنين النحل ودوته.

وأول ديوان أخرجه «أنداء الفجر» إذ نشره في الثامنة عشرة من عمره، وتتضح فيه نزعة الرومانسية المبكرة، إذ نراه يفسح فيه للحب والطبيعة وأصدائها في نفسه، غير متناسل لمشاكلنا السياسية والاجتماعية، ولا غمضي في قراءته حتى نحس ضعف صياغته ونزارة معانيه وأخيلته، لسبب بسيط، هو أنه لا يزال ناشئاً، ولم يتمرس بعد بصناعة الشعر تمرساً كافياً.

ويرحل إلى إنجلترا، ويعود، وقد نظم كثيراً، وما تلبث دواوينه ومنظوماته أن تتعاقب كالطر، وكان أول ما أظهر منها ديوانه «زينب» الذي نشره في سنة ١٩٢٤ وقد اختار له اسم صاحبه القديمة، فذكرها لا تفارقه. والحب والطبيعة هما محور هذا الديوان، وتلقانا فيه قوالب الموشع والدوبيت وقصيدة غزل في زينب (ص ١٦) حاول أن يحدّدها في القوالب الشعرية ومن خير قصائده فيه قصيدته «الحلم الصادق» التي يفتحها بقوله:

هات لي العُودَ وغنيّ واسمعي شجوي وأني
تطرحني الأحزان عني فأؤدي صلواتي

وفي السنة التالية نشر ديوانين بنفس النغم هما «أنين ورنين» و«شعر الوجدان» ونجد فيها مشاعر وطنية صادقة. ونشر في نفس السنة ديوانه «مصريات» صور فيه أمانيه الوطنية محرّكاً همّ المصريين للخلاص من الإنجليز الغاشمين. ولم يلبث في سنة ١٩٢٦ أن أخرج ديوانه «وطن الفراعنة» وفيه يتغنّى بأعجاء مصر وآثارها القديمة. ونراه في نفس السنة يخرج ديوانه الضخم «الشفق الباكي» وهو يقع في أكثر من ألف صفحة، تسبقها مقدّمات وتليها دراسات في شعره. ونراه في هذا الديوان ينظم بعض الأقاصيص ويترجم عن الإنجليزية بعض الأشعار، ويذكر بين يدي بعض منظوماته أنها من الشعر المرسل، وقد تكون من الشعر الحر. وقد علق في طائفة من أشعاره على كثير من الأخبار العالمية وشكا من أعباء مهنته التي تعوق ميله إلى الشعر، غير أنه عاد فاعترف بأن ملكة الملاحظة التي تعود عليها في الطب أفادته في شعره، ومن ثم خصّ بمجهره (الميكروسكوب) بقصيدة أطراه فيها، جعل عنوانها «رفيقي الكشف». وفي رأينا أن هذه الملكة جارت عليه أكثر مما ينبغي، إذ جعلته يحول كل ملاحظاته إلى شعر.

ونراه يحتفظ في هذا الديوان بطائفة من قصائده التي نظمها في إنجلترا كقصيدته في سقوط الجليد وحديث البحر وصحبة الألام. وعلى شاكلة دواوينه السابقة تبرز في «الشفق الباكي» أمانيه الوطنية ومشاعره القومية سواء في بعث الذكرى لندشواي ويوم التل الكبير أو في تحيته لعبد الكريم بطل الريف المغربي وتألمه لكارثة دمشق حين قذفها الفرنسيون بالمدافع سنة ١٩٢٥ وقد رد على «كبلنج» الشاعر الإنجليزي الاستعماري في قوله: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» رداً مفجعاً. ودائماً نجده يرتبط بأحداثنا السياسية وكثير من المشاهد اليومية. ويحدثنا عن أعياد أسرته التذكارية. ولما توفي سعد زغلول خصّه بكتيب ضمه رثاءه له، حتى إذا كانت ذكرى الأربعين نظم فيه مرثية أخرى بعنوان «التراث الخالد».

ولا يكاد يفرغ من نشر ديوانه الكبير «الشفق الباكي» حتى يتخذ العدة لنشر ديوانه «وحي العام» معلناً أنه سيصدر كل عام ديواناً بهذا العنوان على طريقة الحوليات. ونغني معه إلى سنة ١٩٣١ فنراه يخرج ديوانه «أشعة وظلال» نازعاً عن نفس القوس التي رأيناها في الدواوين السابقة، وهو فيه كثيراً ما يأتي بإحدى الصور لبعض الرسامين العالمين، ويحلل خواطره إزاء موضوعها، كما أنه كثيراً ما يترجم مقطوعات ومنظومات عن بعض الشعراء الغربيين، وقد يذكر الأصل الذي نقله، ويفجؤنا أحياناً بوضعه عناوين لبعض قصائده: عنواناً عربياً وآخر إنجليزياً. ولا نصل إلى سنة ١٩٣٣ حتى نراه يخرج ديوانه: «الشعلة» و«أطياف الربيع» ويقدم الحب والطبيعة والأساطير المصرية واليونانية أخصب البواعث في الديوانين جميعاً، ولا ينسى آماله الوطنية، فقد كان يحس مشاعر شعبه، ومن قصائده الجميلة في الديوان الأول «الناس» وفيها يصور صراعهم وعدوانهم بعضهم على

بعض. وتلقانا في ديوانه الثاني قصيدته «الفنان» وفيها يصور حبه
الظالم أبدأ إلى لقاء الحبيبة، على شاكلة قوله :

أمانا أيما الحب سلاماً أيما الأسي
أتيت إليك مشتتياً فراراً من أذى الناس
أطلي يا حبة الروح في عيني تحبيني
شراي منك أضواء وقوي أن تناجيني

ويخرج في سنة ١٩٣٤ ديوانه «الينبوع» بنفس المادة والمضمون.
ونراه فيه يشكو شكوى مرة من نقاده في قصيدته «المهزلة» وكثيراً ما
تلقانا هذه الشكوى عنده. وفي سنة ١٩٣٥ نشر ديوانه «فوق العباب»
بنفس الروح ونفس الانطلاق في موضوعات الحب والطبيعة
والأساطير القديمة ومشاهد الحياة. ويتكاثر غبار النقد من حوله،
فيقف إنتاجه الشعري ولكن إلى حين، فقد أخرج في عام ١٩٤٣
ديوانه «عودة الراعي» ونراه لا يزال يفكر في الشعر المرسل فينظم منه
بعض قصائده، كما نراه يحلم بمشالية إنسانية دقيقة في «حلم الغد».
وهو في هذا الديوان كدواوينه السالفة يحاول دائماً إيقاظ الوعي في
الشعب المصري وإثارة للحصول على حقوقه المقدسة والثورة على
الحكام الفاسدين، على نحو ما نجد في قصيدته «حداد القطن» وفيها
يقول:

يا شعب قم وانشد حقو فك فالخنوع هو الممات
تشكو الغريب وعلة ال تشكو الزعامات الموات

ويرحل إلى أمريكا، وينشر فيها ديوانه «من السماء» سنة ١٩٤٩
وفيه كثير من صور البحر والطبيعة والحياة هناك. وقد توفي كما أسلفنا
وهو على أهبة إصدار أربعة دواوين.

ودفعت أبا شادي معرفته الدقيقة بالأدب الغريبة وما رآه عند أستاذه مطران من أشعار قصصية إلى أن يقوم بمحاولات في هذا الاتجاه، وكانت أولى محاولاته «نكبة نافارين» التي نشرها في سنة ١٩٢٤ وفيها خلّد ذكرى القوات البحرية المصرية التي ذادت عن الخلافة العثمانية والترك في موقعة نافارين لعهد محمد علي. وقد صوّر فيها الأسطول المصري منذ خروجه من قواعده إلى أن حاقت به الهزيمة في صور زاخرة بالحياة، وختمها بندب من سيزوستريس للقتل وبكائهم. وفي سنة ١٩٢٥ نظم قصة جديدة بعنوان «مفخرة رشيد» خلّد فيها ذكرى القوات المصرية التي ردّت عدوان الإنجليز الأثم عن هذه المدينة في موقعة إبريل سنة ١٨٠٧. وأتبع ذلك بقصّتين اجتماعيتين هما «عبد بك» و«مها» وهو فيها أقل توفيقاً من الناحية القصصية والشعرية.

وعلى نحو ما عالج القصة في شعره عالج المغناة: «الأوبرا»، فقد مضى منذ سنة ١٩٢٧ يؤلف فيها آثاراً مختلفة، ومعروف أن المغناة لا تعتمد على الشعر والتمثيل فحسب، بل تعتمد أيضاً على موسيقى مركّبة. وقد يكون اعتمادها على هذه الموسيقى وألحانها أكثر من اعتمادها على التمثيل والشعر. ولعل ذلك هو السبب في أن مغنياته أو «أوبراته» لم تلق النجاح المنشود، وكأنه أحس بما كان يتظرها، فكتب في ذيل مغناته الأولى «إحسان» بحثاً مهبطاً في تعريف المغناة: «الأوبرا» وتاريخها ومدارسها الإيطالية والفرنسية والألمانية، مبيناً أن المدرسة الأولى وحدها هي التي تعول فيها على الموسيقى والغناء، بينما تعترف المدرسة الثانية بالنص الأدبي، وتبالغ الثالثة في الاعتماد عليه وتجعله الأساس. وقد مضى مهتدياً بالمدرسة الأخيرة في صنع مغنياته، محاولاً أن تكون لها قيمة درامية مستقلة.

وعلا شك فيه أنه وفق في الوعاء الذي اختاره لمغنياته، إذ اتخذ موضوعها من التاريخ تارة ومن الأسطورة تارة ثانية، غير أنه لم يستكمل لها القيمة الدرامية التي كان ينشدها، سواء في بنائها وعناصرها الفنية أو في رسم شخصها وتوليد حوارها وتتابعه بينهم. وهو أيضاً لم يستكمل لها القيمة الغنائية الخالصة، إذ يقصر شعره عن النهوض بأعباء الغناء والتلحين وما يستلزمان من أناشيد بسيطة عذبة.

وأول ما أخرجه في هذا الاتجاه «مغناة إحسان» كما قدمنا، وحوادثها تجري في أثناء الحرب المصرية الحبشية التي نشبت في سنة ١٨٧٦ وكانت إحسان زوجة لابن عم لها ضابط اشترك في تلك الحرب وأظهر بسالة نادرة، غير أنه وقع في الأسر، فأشاع بعض رفاقه أنه مات. وعاد بعد خمس سنوات ليجد امرأته وقرّة عينه قد تزوجت ومرضت، وهي في الترع الأخير، وتراه فيغشى عليها من الدهشة وتموت. وأتبع هذه المغناة بمغناته «أردشير وحياة النفوس» اقتبسها من «ألف ليلة وليلة» وهي من أربعة فصول. وينظم مغناة «الآلهة» وهي مغناة رمزية يجري فيها حوار بين شاعر فيلسوف وآلهي الجمال والحب وآلهي الشهوة والقوة، وهي في حقيقتها حوار خيالي وليست عملاً درامياً. ويعود إلى التاريخ فيؤلف مغناة «الزباء» ملكة تدمر.

وعلى هذا النحو كان أبو شادي غزير الإنتاج في شعرنا المعاصر غزارة مفرطة، ومن المحقق أنه لم تكن تنقصه موهبة الشعر وأنه كان يستطيع أن ينظم قوافي أي موضوع يعنّ له أو يفكر فيه، غير أنه استرسل في ذلك استرسالاً حال في أكثر الأحيان بينه وبين نزوج تجاربه الشعرية، كما حال بين كثير من شعره وبين إرضاء الفن فيه والنهوض بحقه.

٣ - مؤهلات أبو شادي

كان العلامة المرحوم الدكتور يعقوب صروف يضرب المثل بالدكتور أبو شادي على توارث العبقرية الأدبية غير منقوصة عن ناحيتي الأب والأم، ولا غرو فالدكتور أبو شادي سليل أسرتين أدبيتين تجلّت فيهما الشاعرية أقوى التجلي.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الأديب الألمي الأستاذ حسن الجداوي إشارة واضحة في تعليقاته القيّمة على قصيدة (نكبة نافارين) وهي أول ما أخرجته الجداوي من آثار أبو شادي، وكان ذلك في سنة ١٩٢٤ في مدينة السويس حيث توثقت بيننا نحن الثلاثة صداقة أخوية وأدبية متينة لم تشبها أدنى شائبة في مدى عشر سنوات كاملة.

ومن خبر أبو شادي كما خبرته حار أول الأمر في تناقض هذه الشخصية الموهوبة، إلى أن يختره الخبرة الكافية فيعرف نواحي نفسيته المتعدّدة، وكيف أنه يلبس لكل حالة لبوسها بشخصيته القوية المرنّة.

إن الدكتور أبو شادي أديب وشاعر بسليقته، ولم تؤثر فيه تربيته العلمية الطبية أي تأثير متفص لهذه الشاعرية، بل على العكس أرى أنها زادت قوة واشتعالاً.

يعمل أبو شادي في المعمل البكتريولوجي عملاً مضنياً منهكاً، فإذا زرتّه مفاجأة وجدته يدأب في عمله بلذة متناهية كأنما هو مشغول بقرض ملحمة شعرية، وما ذلك إلا لتذوقه جميع أعماله بروح الفنان الأصيل، حتى إذا ما انتقل إلى المطبعة رأيتّه يراجع مسودّات مجلاته ويشرف على الطباعة بعناية واهتمام وشغف ترجع أيضاً إلى روحه الفنية التي تحبّ الاتقان وتتطلع دائماً إلى الكمال، وقس على ذلك إكبابه على المطالعة أو على البحث والتأليف، حتى إذا ما جالسته في

بيته أو في أحد الأنديّة أو لمحته في القطار أو الترام وجدته حالماً سابحاً في خيالات الشعر أو متأملاً مستوعباً لأطياف الحياة التي تمر أمامه في الشوارع، أو تلك التي تتجلّى في الأرهار والأشجار ومختلف الأشعة والظلال، ولك أن تقسم حينئذ أن أبا شادي مشغول بالتجارب الشعرية عن كل ما حوله حتى ولو شغلته بحديثك!.

فهنا شاعرية عجيبة متأججة، أول مؤهلاتها الوراثة ثم الثقافة، وتشمل الوراثة تكوينه العصبي الحي الذي لا يبدأ أو الذي تؤثر فيه أطياف الحياة تأثيراً قوياً متواصلاً كما تؤثر فيه أخيلته وتصوّفه وأحلامه وتجاريبه المتعددة ومطالعاته الكثيرة وسباحاته واحتكاكه بالناس، في حين لا يتفاعل مع كل هذه العوامل في الغالب إلا القليلون من الشعراء. زد على هذا نزعة أبي شادي إلى الموسيقى والتصوير منذ حدثته، فتجد في شعره الغنائي الرنين الموسيقي الرائع إلى جانب شعره الصوفي المتشّف، وتجد له شعر التصوير الوافي التحليل كأنه لوحة مصوّرة إلى جانب الشعر الوصفي الذي يتغلغل في صميم الحياة ويمتزج بروح الطبيعة.

ومن مؤهلات أبي شادي شغفه باللّغة وإطلاعه الوافي عليها وعنايته بمقارنة اللّغات وغيرته على الأدب العربي، وكل هذا ساعده على تطويع اللّغة لأغراضه الأدبيّة فلم تقف حائلاً دون التعبير عن أدق عواطفه [حتى قال فيه الأستاذ خليل مطران إنه «أحدث في اللّغة العربية شعراً سلساً بالفاظه، قريب المأخذ بسهولة، سليماً بلفته جهد ما تتسعه المعاني المصرية، متقيداً بأوزانه ولكن تقيداً الموشك أن يعتمد إلى الافتكاك من كل ثقل الكلفة فيها»]. (راجع تصدير ديوان «أطياف الربيع»).

ومن مؤهلاته البارزة أيضاً إيمانه بشعوره وعاطفته فلا يقبل أي

اعتراض على نجوى نفسه، ومن ذلك الشاعر الحر الذي لا يقبل من أي ناقد أن يحدد له مواضيع شعره وما يجوز له أن يعبر فيه عن خواطره الملحة وما لا يجوز؟ إن هذا التصنع لا يعرفه أبو شادي، فهو خير من يطلق نفسه على سجيته ليعطينا شعراً حياً عليه طابع شخصيته الحرة الحساسة.

وأعد من مؤهلاته كشاعر عظيم إنسانيته العميقة وتسامحه الجميل الذي أعطانا شعراً إنسانياً عالياً لا أثر للتصنع فيه، ولولا أنه يعيش في ذاته كإنسان حساس كريم النفس لما كان من الميسور أن تغفر منه بكل هذا الشعر الإنساني العالي الذي يفيض رحمة وصفاء وحناناً.

ولا يسع المقام استقصاء مناحي مؤهلاته المتعددة، فهذا ما لا تسمح به محاضرة كهذه، والأفضل تركه إلى تاليف خاص عنه يضعه أحد أقرانه النابهين من الشعراء أو من الأدباء الممتازين. وصحيح أنه ليس من الضروري أن ينقد الشاعر ويؤرخه شاعر معبر مثله. ولكن من المحتم أن يكون على الأقل شاعراً حساساً في ذاته تتجاوب نفسه ونفسية الشاعر المنقود، وأما ترك النقد والتأريخ الشعري لأي كاتب أو ناقد كل شهرته مبنية على تناول القلم والنشر في الصحف فخطأ كبير.

٤ - شخصية أبو شادي

تناول شخصية أبي شادي بالتحليل غير واحد من أدبائنا البارزين أذكر منهم الأساتذة خليل مطران وأحمد عمر وحسن الجداوي ومحمد صادق عنبر وعلي محمد الجداوي وسلامة موسى وكامل كيلاني ومحمد صبحي ومحمد أمين حسونة وأحمد الشايب وأحمد الصاوي ومحمد وجيلة العلالي وعبد القادر عاشور والدكتور إبراهيم ناجي وعبد

الفتاح فرحات وحسن كامل الصرفي وإبراهيم المصري وعبد الحميد
فؤاد وغيرهم، وجميعهم مجمعون على أن شخصية أبي شادي تتسامى
بصوفية نادرة متشعبة في تركيبها، فنحن أمام رجل جبار الذهن بحب
الحياة غاية الحب ويتذوق الاستمتاع بها نهاية التذوق، يتغنى بجمالها
وبأوصافها البديعة، ويحلل روائعها في شعره، ويندمج في كل شائق
حبيب، بل تخلق نفسه من جميع مراثيها صوراً للجمال والسعادة، ومع
ذلك فنفسه الفنية أزهد ما تكون في هذه الدنيا من مناسبات...
ونفسه مكشوفة في شعره الذي هو ترجمان حياته، لأنه لم يتعمد أن
يذيع منه ما يرضى الجمهور بل نشره كما أرضى عواطفه وحدها،
فكان مرآة صادقة لجميع أحاسيسه في مختلف أدوار حياته وفي ظروفه
المتباينة، لا صورة مصطنعة لاستهواء القراء وإرضائهم. فأبي شادي
يقبل على الحياة وإن نفر من بعض أهلها، وإن سخط على بيته،
ولكنه يعود فيشفق عليهم ويحب لهم الخير ويعمل على إسعادهم. وهو
يحب دنياه ومتعتها وإن صغرت في عينه كلما تجلّت أمامه مثله العليا،
وبينما يسحره جمال راقصة فنانة ترى قوته الروحية الصوفية تتحول
سريعاً إلى الزهد فينبط راهب الدير على نقشه وتحمره النسبي...

وإذا لخصنا شخصية أبي شادي في كلمة فعلياً أن نقول إنها
شخصية العامل المحسن والفنان المبدع. فقد حمل أبو شادي على
كتفيه أعباء تنوء بها هيئات متعددة لخير العلم والأدب والفن، ولخير
وطنه البائس، ولخير العالم العربي، ولخير الإنسانية على قدر ما
تستطيع مساهمته في خدمتها بالفكر والروح والعمل وهذه صورة مجمع
على صحتها، وحسبك من رجل مثله أنه تحمّل ولا يزال يتحمّل
مسؤولية تنظيم الجمعيات العلمية والأدبية التي كوّنوها والمجلات التي
أخرجها ولا يزال حريصاً على حياتها ونفعها، وإن لاقى في سبيل

ذلك من البيئة الجاحدة ومن حساده الكثيرين ما لاقى كل مصلح متجرّد من إساءة ومقاومة عنيفة! وأنت ترى أن جميع أعمال أبي شادي ليست مما سبق إليه، لأن روحه بطبيعته مبتكرة مبدعة تصدف عن التبدّل والتقليد، فهو يسدّ بمجهوداته فراغاً عظيماً من ثقافتنا المتنوعة. وإن رجلاً متصوّفاً مثله، يؤمن كل الإيمان برسائله وعمله، ويتفانى في عقيدته، ليس بغريب منه أن يتشبّث كل التشبّث بما يعتقده صواباً، فيأتي التسامح في مبادئه الأصلية، ويعمل بتؤدة وثبات واطراد متواصل لنشر مذهبه وآرائه، سواء أتناولت جعل مصر محطة عالمية للنحالة، أم التجديد في التشخيص البكتريولوجي، أم النهوض بالدجاجة المصرية أم التسامي بالشعر العربي، أم ربط استقلال مصر الاقتصادي بالصناعات الزراعية]، أم غير ذلك من نواحي نشاطه الذهني المتعدّدة، فجميع هذه أمامه بمثابة سمفونية كبرى لها وحدتها وإن عدّها الغير متعدّدة. . ونشاطه المتنوع وحبه للتنوع منعكس في شعره الذي يمثّل نماذج شتى من الحياة ومن الأساليب أيضاً، ولكن شخصيته تظل من ورائها جميعاً.

والخلاصة أن شخصية أبو شادي تشمل مزيجاً من عالم مجسم، وأديب مجسم، وشاعر مجسم، ومصلح مجسم وإنسان مجسم. هو يعيش في كل هؤلاء في آن واحد، وتنعكس مرآتي كل هؤلاء في شعره فترى فيه الفيلسوف الممعن، والموسيقار المستوحى، والمصور المبدع، والوطني القائد، والعربي الفيور، والإنسان التسامح، فشعره أصدق مرآة لشخصيته المتعدّدة الجوانب، ومن حسن الحظ أنه ليس ممن ينكرون أبوة شعرهم إرضاء للبيئة أو لاعتبارات عرضية، فجاء هذا الشعر صورة بارزة صادقة لشاعرية أبي شادي ولسيره أبي شادي، وإن كان قد فقد غير قليل من شعره أثناء اغترابه عن مصر.

٥ - شعره الإنساني

لا نزاع في أن أحب الشعر إلى أبي شادي هو شعره الإنساني الصافي الذي يمثل نفسه الرحية التي نلمسها في روايته (أختاتون) وقد أهداها إلى أستاذه خليل مطران وإلى الفيلسوف الاجتماعي الإنساني ولز، وهي من أحسن أوبراته في مغزاها ومعانيها وموضوعها وموسيقاها.

ولا تقرأ ديواناً من دواوينه - حتى شعره منذ نعومة أظفاره - إلا وتجدّه مشعباً بأصفي الشعر الإنساني الذي يحلم بوحدة البشرية كأسرة واحدة نجممها الثقافة والتراحم واشتباك الصوالح وآمال الإنسانية المتسامية. وليس من ناقد جديد بهذا الاسم إلا واسترّعه هذه الناحية الفريدة في شعر أبي شادي، وأخصّ بالذكر نقد الأستاذ العلامة أحمد الشايب. يقول أبو شادي في قصيدته «الإنسانية» (ص ٣٩٥ من ديوان «الشفق الباكي») وهي من أروع شعره العالمي :

ما زلت سابحة بتيار الدم	فتنبهي من قبل أن تهذمي!
وتعلمي سرّ النجاة وحقيقي	معنى الحياة بحكمة المتعلم
إن الحياة تضافر وتعاون	سيان بين غنيها والمعدم
حتى الجهاد فقد يؤازر بعضه	بعضاً، فكيف بمن لروح ينتمي؟
روح الوجود هو الجمال، فما له	قد شاه بين أذى وخبت مضم
وأذبل بين تكالب وتناحر	وهو الذي لولاه لم تنسّمي
مرّت ملايين السنين فهل كفت	لتفهم الدنيا ونقض توهم
ما لأمك اللؤام عند طقولة	والآن ما بكفيك لوم اللوم
ما بين شمس بددت إشعاعها	لتضيء نهجك بعد عيش مظلم
وعوالم من الأرض مثل سمائها	تعطيك ملء هوائها والمنجم

قد سخر الكون العظيم بما وعى لرضاك إن آثرت أن تتقدمي
 فأضعت عمراً - لا يقاس - بتافه والقين مشغول بشحد اللهزم
 وجرحت نفسك بالجهالة مثلاً من ظلمه بيديه قد جرح العمي
 إلى آخر هذه القصيدة المدهشة التي لا أعرف لها نظيراً في اللغة
 العربية، وقد سمعت من الأستاذ لطفي جمعة - وهو الأديب المطلع
 على ثقافات شتى - أن مثل هذه المناجاة المتدفقة القوية لم ير لها نظيراً
 حتى في أشعار الفرنجة.

٦ - شعره الوطني :

إن إنسانية أبو شادي لم تحل دون شعوره الوطني، وما كان يمكن
 أن تحول وهو الذي يتسب إلى بيتين اشتها بأعلام الوطنية، ويكفي
 أن أشير إلى خاله العظيم المرحوم مصطفى نجيب الصديق الحميم
 للمرحوم مصطفى كامل باشا وساعده الأيمن في حياته، وإلى والده
 الجليل المرحوم محمد أبو شادي بك الذي كان من أقوى أركان الوفد
 المصري ومن زعماء النهضة المصرية.

ولكن الدكتور أبا شادي لا ينظر إلى الوطنية نظرة الانانية
 والتعصب الأعمى بل يحلها محل التأخي الشمي والقومية السليمة،
 ويفسرها تفسير الكرامة لأمة رشيحة حيّة متحبة، بهذه الروح نظم
 شعره الوطني قديمه وحديثه، وبهذه الروح ألغى على المفرقين من
 أذئاب الأحزاب الذين نعتهم بـ «سماسة الهوان».

ولولا هذا الشعور القوي بالكرامة الوطنية ما نظم أبو شادي
 قصيدتيه الرائعتين «نكبة نافارين» و«مفخرة رشيد»، ولا ديوانه الحافل
 «مصريات». ولا خواطره الوطنية المؤثرة في شتى المواقف الشعبية؛
 ولعلها أكبر مجموعة من الشعر الحي لشاعر مصري وقف جانباً عظيماً

من جهوده على تهذيب أمته . وأبو شادي يسلك في شعره الوطني مسلكين مختلفين ولكنها يلتقيان : أحدهما مسلك الإهابة والتذكير والتشجيع للعناصر الصالحة من أمته ، والآخر مسلك التقرير والتنبيد في لهجة الناصح الأمين المخلص والمربي الحازم وكأنما قلمه مبضع الجراح الذي يعمل على استئصال الأورام الخبيثة وقد يجور في استئصاله ولكنه يغار دائماً على سلامة المريض .

فهذا أبو شادي الحكيم المؤرخ والوطني الغيور يهتف في ختام قصيدته «نكبة نافارين» :

تلك المآثم أحييت جذوة لبثت تحت السكون طويلاً دون كتمان
فأشعلوا عزمكم منها ولا تقفوا فالقنع والمعجز للتاريخ سيان
إن كان فيها انقضى نار لنهضتكم فقد غدوتم وللإصلاح ثاران
قد سطر الأمس عنواناً لغايتكم فامضوا ولا تكتفوا قدراً بعنوان

ولتجعلوا السمي قبل القول شارتركم
ورب سمي صموت القول رنان
إن تبتغوا تحت هذي الشمس دولتكم
فالسيف والعلم والأخلاق لباني!

وبهذه الروح يتغنى ببطولة شهداء رشيد في موقعتهم التاريخية الشهيرة مع الأسطول الإنجليزي :

وسحينا (مصر) من ذكراهمو تلك ذكرى عن بلوغ المحال!
بلغينا كيف أودى عزمهم بصعاب قمن أفسى من جبال
كيف هزوا قوة أكبرها عالم القوة والحرب الضلال
كيف ضحوا للرمال دمهم في دفاع العز عن تلك الرمال
كيف هذوا سفناً سارت لهم في اختيال، فهوت دون اختيال

وبهذه الروح ودّع وطنه بقصيدته العينية البديعة التي ظهرت في جريدة «المؤيد» سنة ١٩١٢، ومن يطلع على أسلوبها الناضج الرائع يخيل إليه أنها من نظم شاعرنا في سته الحاضرة، وما سر ذلك سوى نضوجه المبكر في نظمه ونثره على السواء. ومن ذا الذي يحدد قوة الأسر في هذا الشعر لفتى مغترب يودّع بلاده الحبيبة إليه وهو بعد في العشرين من عمره:

آن الرحيل فلا جواب لداعي، حتى أُنِم لها مَقَال وداعي
وأُسْطَر العهد الذي إن فاتني يوماً رعايته قصفت يراعي

في العيش أم في الموت، ما بين المني والبأس، أذكرها بقلب واعي
ستعيش أوطانُ يُحَقِّقُ غَيْشُهَا وتموت أوطانُ بني الناعي

يا مَنْ يخاف عليّ أن تُودي النوى بعظيم تحناني لها وداعي

أنا لست مَنْ يَنْشَى الوفاء وإن تكن عُقباه أوجاعاً على أوجاعي

أنا مِنْ طهارة ذمّي وسريرتي كالحقّ معتصم وراء قلاع
جارت عليّ الحادثات فسرتني عزيمي، وضرّ بمهجتي إزماعي

فكّث والقلب الكبير عزّني لمواطني الأقدام والإبداع
ما الذنب ذنب فتى يعزّ بلادُهُ إن أقعدته عوامل الأوجاع

الذنب ذنب القادرين على هُدى التاركين بلادهم لضياح
البالغين بعلمهم أرقى العلل والهابطين بخلقهم للققاع

إلى آخر هذه القصيدة التي تلمح فيها الوطنية المتأججة الصادقة، كما تلمح التحرّر في تعابيره وأسلوبه في تلك السن المبكرة، وتلمح أيضاً روح التذمّر من بيته التي يقول عن أفرادها في غير تهيب:

البالغين بعلمهم أرقى العمل والمهابطين بخلقهم للقاء
ومن ظروفنا الوطنية الحاضرة حيث ساد التفكك والخصومات
وقرت العزائم وشغل الناس بالصفاثر لا أعرف شاعراً مصرياً مضه
الأم والحسرة على حال وطنه وألقى بشعلته في الميدان كما فعل أبو
شادي بينما خرسست جميع الألسن الأخرى، وحسبكم أن تقرأوا شعره
الناري في ديوانيه «الشعلة» و«أطيف الربيع»، فهو شعر الخلود وشعر
اللوعة الباقية.

تردّد للمنتبي ولحافظ إبراهيم ولغيرهما من أعلام انشعر العربي
الذين عاشوا في مصر أشعار مشهورة في تقريب المصيرين ولكن لا
أعرف شاعراً في العربية - بالغاً ما بلغت منزلته - نفث مثل هذه
السخرية اللاذعة كأبي شادي في أبياته «المومياء» (ص ٧٢ من «أطيف
الربيع») حين يقول:

أسيرُ وكم أرى في الناس حولي	أسيراً حاله كالمومياء!
كان السُحر جرّده ولكن	يلوح به التعمّق في الفناء
فأبصر فيه صورة آدمي	وما ألقى به مغنى الرجاء
فهل رحل الوري عن مصر حتى	رأينا الميت يرجع للوفاء؟!
ولكنّ الفناء يُطلّ منهم	وأهل الأمس من أهل البقاء!

وأما قصيدته «الضحك الباكي» (ص ١٠٩ من ديوان «الشعلة») فاشهر من أن يُعرف بها لأنها من الشعر الذائع بين الجمهور، وقد
نظمها عند اشتداد الظروف السياسية الاليمة، وكم يحزنني منها قوله:

يا موطناً كل ما فيه يؤرقني	وكل ما فيه أتراحني وآلامي
من ترّم اللحن للصداح في زمن	أحق أن يتهادى بين أنغام؟

وَمَنْ رَأَى أَنَّ هَذَا الثَّوْرَ مَنْقُصَةً وَأَنَّ حَقَّ الْوَرَى أَضْفَاثُ أَحْلَامٍ
وَمَنْ أَبَاحَ لِأَصْنَامٍ مَجْرَدَةً ذُلُّ الْحَيَاةِ كَأَنَّا دُونَ أَصْنَامٍ!؟
ولا شكَّ عندي في أن شعر أبي شادي الوطني سيكون من أخلد
الشعر المصري، لأنه شعر عواطف حية وليس بشعر مناسبات.

٧ - شعر العروبة :

من طبيعة أبي شادي الوفاء لأصله، فهو لا ينسى أن الدم العربي
الذكي في أرومته من ناحية والده، وهو لا يجهل أن الجامعة العربية
أسمى في غايتها من الجامعة القومية المحلية. ومن ثمة فهو يتسامى
بالروح الوطنية تسامي الكرامة، ويخصّ الجامعة العربية بنفحة عالية
من شعره الإنساني. هو يمجّد وطن الفراعنة تمجيد الغيور على تراث
وطنه وكرامته، ولكنه لا ينسى الجامعة الكبرى - جامعة العروبة التي
لا تسمو عليها في نظره سوى جامعة الإنسانية. وهو يخصّ العروبة
من قديم بصفوة من أكرم شعره. وَمَنْ مِنَّا يَنْسَى قَصِيدَتَهُ الطَّنَانَةَ فِي
«الأسد الأسير» عبد الكريم (ص ٥٥) من ديوان «الشفق الباكي»
التي يقول في مطلعها:

أَكْذَا تَرَوْعُ مَصَائِبُ الْإِبْطَالِ!؟ أَكْذَا تَهْوُلُ مَصَارِعُ الْأَمَالِ؟

وقصيدته الرائعة في حامد البقار (خليفة عبد الكريم) وفيها يقول
شاعرنا مباحياً بعروبته ووطنيته (ص ٢٥٩ من «الشفق الباكي»):

إِنَّ الْعُرُوبَةَ وَالْكَنَانَةَ مَلَّتِي دِينَ يَوْحَدُهُ الْوَفَى الْعَابِدُ
فَلْمَوْطِنِي رُوحِي وَكُلَّ جَوَارِحِي وَلَكُمْ حَنِينِي وَالشَّعُورُ الْمَاجِدُ
يَكْفِي لَنَا النَّسَبَ الْعَتِيدُ مُجْمَعاً فَجَمِيعُنَا ضَيْدُ رَمَاهُ الصَّائِدُ!

وقس عليها قصيدته «آخر بني سراج» ص (١٧٦ من «الشفق الباكي») وقصيدة «دار ابن لقمان» ص (١٦٨ من «الشفق الباكي») وقصيدته «الزهراء» ص (١٠١ من ديوان «أنين ورنين») وهي معدودة من عيون الشعر المصري. وفي مطلعها يقول:

يا ناشد الملك في أدراسِ أطلالِ
يكفيك بالذكر خلدُ للسنا الخالي
مرّت قرونٌ على الماضي وما تركت
عن رسمه أثرًا قد غابَ عينِ بالي
السرف الحبُّ حتى صار يُلهمني
وأصبحتُ صور التاريخ تسمي لي؟!

وقد ختمها بهذه الأبيات الرائعة:

فيا سلالة مجد العرب لا تقفوا
عن الفخارِ فما الدنيا بأقوال! وأنصفوا ذلك الماضي بحاضركم
وإن نظرتُم إلى الأطلال من ألمٍ
ليومكم وغدٍ، لا بالهوى البالي فراقبوا أهلها في أسر أغلالِ
فهم همو الطلل البالي إذا قنعوا
ولم يعيشوا كما عاشت لإقبالِ
ذكرُ الجودِ جميلٌ في عواطفه
لا غاية لمباهاةٍ وإدلالِ
فإنما الفخرُ في سمي بلا مللٍ
فلا تكونوا كنهرٍ غير سلسالِ
وابنوا كما بنيت (الزهراء) عن عظم

وحاذروا جهدكم من طَبِّ دُجالِ
نحيا الشعوب إذا أخلاقها سلمت
ولم تخف حمل أعباءٍ وأثقالِ
ويكرمُ المرءُ إن غالى بتضحيةٍ
ولم يكن في مجالِ الصّدقِ بالتالي

وأما قصيدته «ذكرى الأندلس» ص (٧ من «ديوان أشعة وظلال»)

فهي من شعره الفخم المردّد، وهي التي يقول في مطلعها:

عُودِي لَنَا يَا أَغَانِي أَمِينَا عُودِي وَجَلْدِي حَظَّ مُحْرَمٍ وَمَوْعُودِ
عُودِي لَنَا رَاوِيَاتٍ تَجِدُ أُنْدَلُسَ وَقُدِّمِي الشَّعْرَ قُرْبَانًا لِمَعْبُودِ

ومثلها قصيدته «عيد الإسلام» (ص ٦٦ من «أشعة وظلال»)
فكلها شعرٌ رَصِينٌ متَأَلِّقٌ بالغيرة العربية الشريفة، وقصيدته «كارثة
دمشق» (ص ٢٨٠ من «الشفق الباكي») وقد عبّر الشاعر في هذه
القصيدة التي كانت أولى المنظوم في موضوعها عن العواطف الحية
التي سَرَتْ في مصر عطفاً على شقيقتها في اللغة والدين والحضارة
والنسب. أنظر إلى مطلعها الرائع :

رَبِّعْتُ لِنَكْبَةٍ مَجْبُوكِ الْأَحْلَامِ وَبَكَكُ بِاسْمِ فَخَارِهِ (الإسلام)
يَا دُرَّةَ (الشرق) الشَّقِيَّ بِمَلِكِهِ أَبْدَأُ يُحَاوِلُ نَهْيَكِ الظُّلَامِ
ضُرْجَتِ بِالْدَمِ فِي مَقَامِ قَدْرِهِ أَنْ تَسْتَفِرَّ مَحَبَّةً وَسَلَامًا!
وفيهما يقول :

نَكَبُوا (أَمِيَّةً) فِي مَقَرِّ جَلَالِهِمْ لَكِنَّا نَكَبَاتُهُمْ أَوْهَامُ
سَبْعِيشَ رَغَمَ السِّيفِ بِاسْقُ غَرِيمِهِمْ وَنَبُوحُ رَغَمَ الْبَدْفَعِ الْأَقْلَامُ

ويقول :

عَيْشِي (دمشق) وَإِنْ فُجِعْتَ وَإِنْ بَكَتِ حَقًّا عَلَيْكَ مَائِرُ وَعِظَامُ
عَيْشِي فَمَا يَنْبِي بَنُوكَ وَفَاءَهُمْ تِلْكَ الْجَرَاحُ - وَإِنْ تَبَقَّى ذِكْرُهَا
كَلَّا، وَلَنْ تَتَضَالَّ الْأَعْلَامُ عَارًا عَلَى الْجَانِبَيْنِ - قَدْ تَلْتَأَمُ

لبس السَّوَادَ على مَرُوعٍ مُصَابِهَا
أُمِّمُ، فَهَوْنٌ صَبْرُكَ البِسَامُ!

وقصيدته في «استقلال العراق» (ص ١٠٧ من «الشعلة») ناطقة
بعطفه العظيم على الأقطار العربية الشقيقة وبإعجابه بنهضتها،
ولذلك كان تأثيره بالغاً بمصاب العروبة في فقد عاهل العرب العظيم
الملك فيصل الأول الذي كان يحبه ويعجب به إعجاباً، فنظم على
الفور مرثيته الباكية الدامية، فكانت أولى المراثي التي ظهرت ومن
أقوى شعر الرثاء، وهذا مظهر مدهش لشاعرية أبي شادي المتوثبة
المتأججة. وهذه المرثية الخالدة لا تقع في غير ستة وعشرين بيتاً،
ولكنها قصيدة جامعة مبلورة، ولم يقل شاعر بعده أبلغ مما قال، وهي
تذكرني بمرثية المرحوم شوقي بك للقائد البطل أدهم باشا فقد نظمها
سريعاً في غير كلفة مدفوعاً بتأثره الشديد، فكانت على إيجازها من
أحسن شعره في الرثاء. ورثاء أبو شادي للملك فيصل الأول من
الشعر الخالد الذي يحفظ عن ظهر قلب. يقول أبو شادي، أو تقول
دموعه بلسان الشاعر العربي الصميم الذي ينبض قلبه بحبة العروبة
وباللوعة لفقد عاهلها العظيم:

هكذا هكذا شعوبٌ نُيِّمُ!
أيها الموتُ ساءَ غُنْمُكَ مَغْنَمُ!
رزؤنا بالعظيم (فيصل) لا يجدُ

مصرٌ في الخطب، إنما الرزء أعظم
علم كان للعروبة إنما نأ وذخراً وعزة تتجسم
قد تمتد الحروب والفتح والبأ س، كما قد نماء مجد تقدم
والصریح الصریح من روحه الحر ة في بيثة بها الحر ينعم
الزعيم الجريء والفتاح الغا زي أبو (غاز) المليك المكرم

بطل الثورة التي لم تنزل نحر	كفي أحاجيها وتُروى بدم
بطل السلم والمعارك، سيا	ن بتدبيره الحصيف المقدم
جند الملك من على آل عبا	س، وكم عاهل وملك تهدم
كم ترامت عليه أحداث أعدا	شداد وحزمه يتبسم
وتجنى عليه أقى عدو	فلذا الموت - بعدما مات - يهزم
وإذا بابنه المرجى المفضي	يحمل التاج في إباء تجهم
وإذا عالم العروبة وثا	ب وفي، وباسمه اليوم أقسم



أيها الشعب يا سليل الألى سا	دوا، وما زال مجدهم يتنسم
نحن في مصر نسمع اللوعة الكب	رى لبغداد والنواح المنغم
ذاك شعر الحياة من روحك الحد	سي وإن كان في رثاء ومأتم
نفخ الروح في فؤادك من قل	ب كبير على رضاك تحطم
مات في قمة الجبال، كما عا	ش مثلاً في التسامى ومعلم
كالشهيد الذي تكفل بالرا	ية في الغزو فوق حصن ميم
يخطف النصر بالدهاء ويمضي	طائراً جارحاً إذا النسر هوم
إن بكاه العراق أو أجفل النه	ر وسيف بغمده يتضرم
فالأنين الأنين أصداؤه شق	عميم، وقل خطب يعتم
وقليل من ساد في الناس للناس	س، ومن علم السورى (تعلم
وقليل من عاش في الشعب للشعب	ب زعيماً بعثه ويألم



ذاك شعري من نار نفسي التي ثا	رت ونساءت فكدت لا أتكلم
هو نفسي، فتسير في موكب الغا	زي وقد عاد كالكمي المثلث

٨ - شعره الفلسفي:

للدكتور أبي شادي فلسفة عميقة في شعره، وهي منبثة في دواوينه في صور فلسفية عاطفية من الشعر الأخاذ، وله حكم بعيدة الغور تأتي عفواً في جميع شعره. وقد وجه النظر إلى روحه الفلسفية الدكتور علي العناني أستاذ الفلسفة بدار العلوم والدكتور منصور فهمي عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية.

هذه الفلسفة المقرونة بالتصوف البعيد هي جزء أصيل من شخصية أبي شادي، فهي أبعد ما تكون عن فلسفته العامة، وهي فلسفة من التفاضل والتشاؤم يستوعب فيها الأول الثاني، ولم أجد أدل عليها من قصيدته «تشاؤم» (ص ٤٦ من «مختارات وحي العلم») التي يقول فيها:

نشأمت حتى قد وجدت تشاؤمي
تفاضل من ينأى عن العرض الفاني
وكم من هموم مرة قد شربنها
لنفسي وغيري في الحياة كلإنسان
وما غاب عني ما بها من مصائب
وجمع آلام وممرض أحزان
ولم أنس يوماً ما حيالي من الأذى
إذا نسي الشاوي بحيرة بركان
ولكنني وجهت بحثي وخاطري
إلى خلف ما تبدي الحياة لوسنان
إلى ذلك الصفو الباب من المحجى
إلى الأمل الحي المهيب بوجداني

إلى ما وعت دنيائي من روح خيرا
 وعاملها الساعي ومصلحها الباني
 إلى قوة غلبة ليس ينتهي
 لها عمل الإنشاء والهدم في أن
 فابصرتُ رُوحاً للجمال مُجدة
 وأدركتُ أنا للجمال كقربان
 فعزى فؤادي أن أكون ضحية
 وأن يهب التجميل للكون حرمان
 واني إذا ما مت خلفت خيرة
 لدنيائي تستهدي بها بعد فقدان
 فيكسب نوعي^(١) بعد خيري وريحه
 أجل، كأن الحر ليس بخزان
 فاصبحت حر النفس استمرى الأسي
 ووجدني كأن الهم غاية سلواني
 وأيقنت أني صنو دنيائي، فالذي
 مُرجى رجائي، وهي رشدي وحسابي
 وما خفت موتي كالغريب الذي قضى
 وحيداً. فعمري والمنية بيان
 حياة على الأباد تبقى بنوعها
 وما عدت للخلد أسطع برهان
 فلما اطمأن الفكر ضحت عواطفني
 بأنني ولذاتي وأجل ربحان

(١) أي النوع الإنساني

وأمتعت روحي بالنعيم الذي أبى
سخاءً يوحى للعني^(١) وللجاني
وما لاح إلا لامرئ عاف إثرة
فعد شقي الحظ وهو هو الهاني
فيا يؤس زر وألم قلبى وعذبا
فلن تهدما يوماً معاقلَ إيماني
تذوقت مرّ العيش حتى جعلته
دوائي إذا ما الخطب أقبل بغشائي
ووزعت روحي في الوجود بأسره
فبات جحيماً العيش أنضر بستان!
وأما نظره الفلسفية الشاملة فتجدها في ملحمة الرائعة «شوبنهاور
والحياة» (ص ٦١ من «مختارات وحي العام») التي ألفت في
الإسكندرية في أوائل سنة ١٩٢٨، ولعل بعض حضراتكم كان من
مستمعيها وقتئذٍ، وقد انتهب هذه الملحمة الفلسفية الشائقة كثيرون
من الكتاب والشعراء، ولكنها ستبقى مذكورة كلما درست فلسفته في
الحياة، وهي إلى جانب ذلك ترجمة جميلة لسيرة الفيلسوف شوبنهاور
الزعيم الحديث لمذهب النشأوم وتحليل شائق لها.

٩ - الطبيعة والمرأة في شعره:

يقول الأستاذ إبراهيم المصري - وهو شاعر بروحه إلى درجة بعيدة
المدى - إن العلاقة الوثيقة بين المرأة والطبيعة هي التي جعلت الدكتور
أبو شادي مفتوناً بكلتيهما روحاً وتكويناً، تصوراً ووصفاً، فترى في
شعره الخنان الوديع كما ترى الثورة الجامعة.

(٢) المعنى: الظالم: الغاشم.

أولاً أراي متهيئاً أمام مبحث ينخص شاعرنا بقدر تهيبي هذا المبحث، فإنه فيصح الأرجاء يكاد يشمل جميع شعر أبي شادي. ولصديقي الأستاذ الجدادي دراسات وافية عن ذلك، كما أن للأستاذ البحراوي أكثر من بحث قيم في غزليات أبي شادي أهمها ظهر في مجلة «العصور» على ما أذكر.

وإني لمعترف بأن كدت أترك هذه الناحية من شعر أبي شادي لأنها وحدها قميئة بمحاضرات خاصة: فهذا أبو شادي الشاعر الغزلي المفتون بالمرأة المستلهم روحها وجسدها بأرق المعاني الشعرية استلهاماً يخاطبها قائلاً: (ص ٤١ من «مختارات وحي العام»):

بلغ التخيل منك غاية سؤله	وكذا الحقيقة في الخيال تضوع
هل كان للدنيا سواك رجاؤها	أو كان غير جمالك النبوع؟
بنت «الطبيعة» أنت، آية فيها	فعل روائك فيها المطبوع
تعبت ملايين القرون فأبدعت	ووقت: فكان سناؤك المتبوع
قسماً به لولاك ما حفز النوى	داع ولا سحب النبوغ سطوع
لولاك أعلنت العواطف بتمها	وقضى على لب الحياة الجوع
منك استمد الملهمون وأثمروا	فالأصل أنت وما عداه فروع

والمرأة الجميلة عنده هي «الآله المتكرر» (ص ١١٦ من «أطراف الربيع»). الطبيعة والمرأة عنده هما موثلاه بل موثله، وقصيدته «الطبيعة» (ص ٢٦ من «مختارات وحي العام») جذيرة بأن تكون من محفوظات الشعر العصري للمدارس الثانوية، فهي آية من الأدب الحديث. إذ هي وصف في فلسفة في وجدانيات في تصوف وكل ذلك بأسلوب أخاذ. ودواوينه زاخرة بأوصاف كل من الطبيعة والمرأة وبمناجاتها، وبذكريات تنعم بهما أو حرقته في البعد عنها أو بأخيلته

التي يسبغها عليها أو يستوحيا منها. خذوا مثلاً هذه الأبيات عن «غادة البحر» (ص ٨٢٢ من «الشفق الباكي») يصف حسناء في قميص شفاف وهي تمرح على شاطئ البحر في الإسكندرية وقد استرعت الأنظار إليها:

هيفاء ينبض بالملاحة جسمها	فترى الحياة من الثياب تطل
فكانها الزهر المحجب بعضه	بالطل، لو يخفي الملاحة طل
أو إنما هذي الثياب تحولت	فغدت مثلاً للحياة يجمل
كشفت جمال الساعدين: كلاهما	سحر له من المقتنين محل
فأغازل الألوان من نور حلا	متناسق صافي الشعاع يدل
وأعاف نور الشمس جنب صباحة	تسنائر الفنان أو تحتل



وهفت إلى الموج الطروب فأظهرت	قدمين لونها حكاة الفل!
لها الرشاقة مثل ساقبها، فما	تبسل خفتها كما نبسل!
تجسري وتمرح في سرور لالع	والماء يرقص والرمال تعمل
والناس قد شغلوا بها عن لهوهم	وعن الحان اللعابات تخلوا
فتأملوها ذاهلين، وأسرفوا	بتأمل هيهات منه يمل
ونظمت شعري من شعور عبادتي	للحسن فهو من الحياة أجل

ولكن حرام أن أتوسع في الاستشهاد والشرح فلن أنقل لكم سوى قطرة من بحر، وهذا جانب عظيم من شاعرية أبي شادي جدير - كما قلت - بدراسة خاصة عميقة.

١٠ - شعر الأبوة والطفولة:

لأبي شادي شعر من الأبوة أخذ لأنه إملأه حنانه الأبوي الدافق، وله شعر جميل في الطفولة، وقل ما نرى هذا الشعر لأن لاكثر شعر الطفولة في أدبنا العربي منظومات صناعية سخيفة فقط. يقول أبو

شادي مخاطباً ابته صفية (ص ٣٣ من ديوان «أتين ورنين»):

لانت أحب عندي من حياتي	فاخشي قبلي وأخاف لمسي
والثم من يد لك في خشوع	جواهر من أنامل منك خمس
وأرشف حين توميء لي انضماماً	سلافة كاسها بأحب كأس
وأشهر في ثنتها ابتداءً	سلاح (كبيد) " من سهم وقوس
تخذت من القلوب أسر مرمي	فلم يقتل سوى حزن وبؤس
وأجمع حولك الأصحاب بصفي	ونهمس مثل رهبان وقس
إلى أن يقول:	

نزلت بناظري وتخذت قلبي	مكان اللّهُ هزّ كهزّ كرمي!
خفوق من مداعبة ولمو	وكم جازاك من سجن وحس
يظل بك الضنين على فؤاد	بناظره " بحب غير بخس
فإن زدناك حرصاً بعد حرص	ولم ننصفك من حق أمس " .
فلا تذري ابتسامك فهو سحر	ولا تبكي، وما أوفى الناسي
فموعدنا لك اليوم المرجى	فكم أوليتنا أفراح عرس

وله شعر آخر بديع في بقية أولاده يشهر بخنانه العظيم وبمحبة الأبوية الجميلة، وأما شعره للأطفال فلعله مستمد من حبه لأولاده (وهو منبث في دواوينه) وإن لم يعين دائماً أنه كذلك، لأنه وقت مرضه لم يكن يعني بالذات أن ينتفع منه الأطفال. مثال ذلك أبياته المعنونة «لعبة ابنتي» - وقد أملاها كما علمت منه على الأستاذ شعبان زكي المصور - (ص ١٠٦ من «أطياف الربيع») مستوحياً لعبة لابنته الصغيرة (هدى):

أنت يا لعبة ابنتي	ذات روح وخفة
أنت عندي عزيزة	وهي عندي عزيزتي

(١) إله الحب. (٢) يعني فؤاد أمها. (٣) يعني حريتها.

أنت مثلك طبعها	في صفاء المحبة
هرة أنت، إنما	أنت لي غير هرة
إن عينيك فيهما	سرّ لبّ وفطنة
أترى حزت سحرها	كم لدى الحب آية
كم تومتد جنبها	في فراش بنعمة
كم تمليت روحها	في حنان ورحمة
كم تشاكيتما على	نظرة بعد نظرة
كم نصاحبتهما على	كل سرّ وشدة
فلذا أنت رمزها	ربّ رمز بدمية!

والبكم مثلاً آخر «الصديقان» على لسان تلميذ (ص ٦٨ من «أطيف الريح»): أول الأصدقاء في هذه الأرض وأبقاهم بخيري وسفمي والد منجب وأم إليها وإليه ملاذ روحي وجسمي كيف أنساها وكيف تراني منكراً للولاء أو للجميل؟ أنا قلباهما، وهذي حياتي لهما، وهي للرجاء النبيل جاحد الوالدين ما كان إلا جاحداً ربه وجاحد نفسه طائع الوالدين ما كان إلا عارفاً نفسه ومنيع أنه.

وقصيدته «البيت» (ص ٦٨ من «أطيف الريح») التي تحبّ إلى الكبير قبل الصغير نعمته:

بني، وهل بيني سوى جنتي؟	فكل ما فيه عزيز حبيب
يحنو، وكم يحنو على مهجتي	وكل ما فيه عطوف رقيب
من زهره الباسم، من عشب	من مائه العائد فوق الحصى
من طيره العابث في وثبه	من كلبه اللّاعب مثل القطا
من كل نور أو ظلال به	وكل صوت أو سكوت عميق
استقبل الترحيب من حبه	والمح الحب يشقّ الطريق

وأسمع أقدامي لها كالصدي من سقفه أو من جدار تحالينا
كل ما حولي صديق: إذا عبت لم يعبس وناجى رضايها
وقد نوه الأستاذ الجداوي من قبل بشغف أبي شادي بحياته البهية
وإن شاقته الحياة البوهيمية أحياناً، فهو يعبر في أبياته هذه عن عاطفة
صادقة لا شك فيها. ولعل حبه لبيته ناشئ عن شعوره بالاستقلال
الذاتي فالبيت هو المملكة الشخصية المحترمة، ولعله ناشئ كذلك
عن وداعته التصوفية التي تحبب إليه العزلة. ومن يدري: فربما كانت
المرأة مما يحب إليه البيت، وربما كان البيت مما يحب إليه المرأة، فقد
خصها بالعظيم من تقديره لامومتها ولنصيبتها في حياة الأمة حتى قدمها
على الرجل من غير تردد... والحق أن أبا شادي أعظم نصير للمرأة
بين شعراء العربية. استمعوا إلى قوله (ص ٧٩ من «مختارات وحي
العلم»):

أنت التي هي مأملي في أمي فإذا انتصفت فكل صعب هين
لو كان لي حق التصرف لم أدع متسلطاً بعلاك لا يتسدين
يبني البناء، وقد نسوك وما دروا فكأنهم بعد البناء ما بنوا:

ولست أدري يقيناً هل كان يحب أبو شادي المرأة هذا الحب
العظيم لو لم يكن قد تزوج أم لا، ولكن يغلب على ظني أن هذه
عاطفة أصيلة في نفسه، بدليل قصيدته التي رفعها إلى السلطان
حسين (ص ١٢٤ من «أنيب ورنين») والتي يقول فيها هذا البيت
الحال:

وإنما المرأة الدنيا بما جمعت إذا تربت وصانت حسنها الغالي!

١١ - شاعر الديمقراطية :

تبذل عندنا الشعر كما تبذل الحياة العامة فصار الشعر السياسي لوناً من التهريج ، بعد أن كان وسيلة من وسائل النهضة يأتي عفواً بضغط العوامل النفسانية المتمشية من شعور الشعب وقادة الرأي فيه إن سامة كُتَاباً أو شعراء ، فلما تبذل الشعر صار ينظر إلى الشاعر السياسي كمحرر أجبر في إحدى الصحف يستوحي أسياده وأجره ما ينظمه ، حتى إذا طفت الأزمات السياسية أخيراً مات هذا اللون من الشعر بلا أسف عليه ، ذلك لأنه شعر صناعي يخلق ويمنع حسب أهواء الأحزاب وليس وفقاً لمواظف الشاعر .

ولكن وسط كل هذا يتجل شعر أبي شادي الديمقراطي ويرتفع صوته حينما تخفت جميع الأصوات ، وآية ذلك أنه شاعر حساس مطبوع لا يستطيع أن يقاوم وحي وجدانه ، فالروح الديمقراطية متمشية في جميع شعره قديمه وحديثه على السواء ، وقد خصّ الفلاح والفلاحة بقسط وافر منه .

يقول أبو شادي في خطابه إلى «الديمقراطية» (ص ٢١ من ديوانه «مصريات») :

يا منار الهدى لشعب تقدم عشت للمجد والحضارة معلم
أنت عون الإنسان إن أعوز الرأى ، وحول إذا الزمان نجهم
أنت ذخيرة الضعيف في موقف الح
ق ، وسيف به يسان ويسلم
أنت خصم القوي في موقف الظل
م بخمر المعق منه ويندم
أنت سر الحياة في حلبة الب - ق وحي العمل لملك معظم

أنت أنت الرجاء للنهضة العظـى
 حى إذا صح أن بالفكر مغتم
 وبهذه الروح يدافع عن حقوق المستضعفين والمضطهدين ويتغنى
 بجمال الريف الساذج حيثما ضاعت الفروق المصطنعة التي تغلبها
 الحضارة. وما أجمل إعجابه بالفلاحة العاملة وإكباره لشأنها (ص ٢٩
 من «مختارات وحي العام») إذ يقول:

سيري خلال القطن بين تبسم	ما القطن إلا من تبسم فيك
ودعي الذي يدعوك ربة مصره	يجني ابتسام الحب دون شريك
إني أباع بالسيادة من لها	في مجد وادي النيل مجد مليك!
ربت له هم الرجال وأطلعت	أملأ كوعد للصباح وشيك
وأعز ثروته سخاء بناتها	وحورها جدوى لكل ضريك
وكان دفق الشمس لفظة ثغرها	فيحول في طمى يعز سبيك



يا وحي (بتاؤور) لم تزل العلـى	كالقن في أيام (منف) تليك!
مازلت لابسة الحداد كيفه	فلتنزعيه، فنحن نستوحيك
أنت المؤهلة العزيزة بيننا	وإن احتملت متاعباً لذويك
سيري متوجة بتاج محبة	للتنع والإصلاح جنب أخيك
وإذا تناسك الذين تخاذلوا	جاهدت إشفاقاً على ناسيك
وعملت زارعة وحاصدة لهم	وغدوت أفتدة بروح فيك
حتى إذا انقشع الغرور تنبهوا	فإذا العتي النفس يسترضيك
وبعاف إلا أن تكوني حرة	في عيشة تهنيه إذ تهنيك
قسماً بقدرك لو نصفت لأدركت	(مصر) العزيزة كل ما يرضيك

فهذه القصيدة الحية تنبض بروح الديمقراطية الشريفة، ولو كان

لمثلي شأن في التعليم لجمعتها من المحفوظات الواجبة في المدارس
الثانوية للبنات والبنين.

١٢ - شعره الغنائي :

فتن أبو شادي بالموسيقى كما فتن بالنقش والتصوير منذ حدثته
فكان الشاعر المصور الموسيقي في مواقف شتى وربي على الحب منذ
صغره فكان شاعر الحب والجمال حتى في كهولته ! وخلق من
الإحساس البالغ ومن الأعصاب المرفهة فكان شاعر الخيال الجامع
والمثل العليا، وذاق مرارات الحياة وأوصابها وتلقى دروس الدهر
العديدة في حياته الجحالة واختباراته الشاملة وطالت تأملاته فكان
الشاعر الفيلسوف. وهذه الصفات المتعددة لشاعريته - معنى ومبنى -
هي التي تجعله يعجب بمطران وشوقي وشكري وناجي والشابي في
وقت واحد، على ما بينهم من اختلاف.

وكم أضحكتني أن يقول المغرضون إن أبا شادي ليس بشاعر
موسيقى بينما هو أول من نبه إلى الصفة البارزة في شعر شوقي وهي
موسيقية وقتما كان المقرظون يخلطون في وصف شعر شوقي خلطاً
عجيباً. . . إن أبا شادي شاعر موسيقى من الطراز الأول، وإنما
موسيقاه ألوان وألوان، وهي تختلف جد الاختلاف حسب المناسبات
والمواقف، شأن الفنان المطبوع المثقف في تنوع إبداعه. وأما موسيقى
الرنين التي اعتادها المحافظون فليست من الفن الحالي في شيء، بل
لقد أفسدت الأذواق إفساداً.

قرأت مرة عن أحد قضاة الإنجليز - ولا أذكر اسمه الآن - أنه كان
يكبره سماع الموسيقى، ولم يكن لذلك علة سوى أن أذنه وأعصابه
ليست بطبيعتها مصقولة لهذا السماع فكانت تفر منه، وكم بيننا من

أناس تتفاوت كثيراً بينهم درجة الصقل السماعي للموسيقى فيجازفون
بالاحكام الحاطة على شاعر هو موسيقي بطبيعته وفطرته!

والمطلع على أوبرات أبي شادي المختلفة يدهشه ما فيها من حلاوة
الأنغام الجديدة والقديمة، وقيسوا عليها أغانيه البديعة التي نهافت
عليها أشهر المغنين والمغنيات ولجنة النشر والتأليف الموسيقية، ولولا
أن تيار العائيه قد اكتسح أمامه ما عداها ولولا نخاذل الشعراء لكان
لهذه الأغاني شأن عظيم في الحياة الاجتماعية في وقتنا الحاضر وإن
كنت أرتقب لها ذلك في المستقبل... يقول ناجي: «هذه الأغاني فيها
سحر، وعذوبة، وفيها تجديد، وفيها بعث وحياة». وقد حللها
البحراوي بفصل بديع في ختامها يستحق أن يدرس، فاكثفي في هذا
المقام بنموذج واحد منها وأؤكد لحضراتكم أنه ليس أروعها بل هو
أول ما وقعت عليه عيني منها. قال أبو شادي في «الكروان الرسول»
(ص ١٠ من «أغاني أبي شادي» ج ١):

بالله	يا	كروان	تكفيك	أشجاني!
بلغ	حبيبي	الآن	أني	له
لم	يَبْقَ	غيرُ	الرُّوحِ	في
مَنْ	لي	سواء	أبوح	مهما
				تناساني؟



بالله يا كروان تكفيك أشجاني!



يا صاحبي الفنان لا زال لي فنك
نجوى هوى وحنان ما شابه منك
تستقبل الإلهام من وجهه البسام

والشعرَ والأنعامَ مَنْ فيضِ وجداني
بالله يا كروانَ تكفيكَ أشجاني!



قد مرّت الأعوامَ سَكَرى بالأمي
والقلبُ فيه خِرامَ تُذكي بأحلامي
ولو عني بالبعادِ تُذيبُ حتى الجمادِ
فكلُّ عيبي نفاذَ لولا الهوى الباني



بالله يا كروانَ تكفيكَ أشجاني!

ويجب أن لا ننسى فضل أبي شادي من تطويع اللّغة العربية حتى تسلس لأذان العامة بدل أن يهبط هو إلى مستواهم ويجارهم . وهذا ما ينتظر من شاعر لا يتملّق الجمهور ويودّ أن يتسامى به بدل أن يتدلّى إليه كما فعل كثيرون من عباد الشهرة الجوفاء .

١٣ - شعره القصصي والدرامي :

لأبي شادي شغف أصيل بالقصص والأساطير يستوعبها ويدرس أصولها وفلسفتها، وقد ضمن شعره غير قليل من قصص الميثولوجيا، ونظم قصصاً عصرية طريفة ما بين مبتكرة ومعروفة مثل «عبدك بك» و«مهما» و«بأمر الحاكم بأمره» . فكان يتجلى فيها جميعاً خياله الرائع وروحه المصلحة الإنسانية وتقديسه للحرية والجمال يضاف إلى ذلك الكثير من أقصوصاته الرمزية الشائعة في دواوينه .

وقد نظر أبو شادي نظرة الناقد الفاحص فوجد الأوبرات معدومة في الأدب العربي بينما يعث العامة وأنصاف العامة بهذيانٍ كثيرٍ

يطلقون عليه اسم «الأويراء» فعمل على تصحيح هذه الحالة ووضع أساس هذا الفن في مصر، ثم أخذ يلتفت إلى خدمة المأساة والدراما الشعرية غير الغنائية فكانت أولى فتوحاته روائي (نفرتي) و(الماليك) وسيكون لأبي شادي شأن عظيم في خدمة الشعر المسرحي، بغض النظر عن مبلغ استعداد رجال المسرح للتعاون معه، إذ ليس لمثل أبي شادي ما كان للمرحوم شوقي بك من المال والجاه اللذين كانا يفتحان الطريق أمام جميع أعماله بصرف النظر عن قيمتها الفنية... فنحن في بيثة لا يبرها الفن لذاته وإنما تتأثر بالمظاهر والإيجاء، وإذا كانت هذه البيثة التي لا يتعلّقها أبو شادي قد بدأت تلتفت إلى أعماله الرائعة بشيء من الخجل فما ذلك إلا من قيمة هذه الأعمال في ذاتها، ومن شخصية الرجل المعتر بنفسه وأثره. ولكن لا قيمة لهذا الالتفات ما لم يكن شاملاً كافياً لاستغلال مواهبه أحسن استغلال.

لغته وأساليبه :

يطول بنا الموقف لو أردنا استقصاء فنون الشعر لأبي شادي فلنكتفِ بما تقدم من عرض عام لأهم مظاهر شعره وخواصه وفروعه وجداوله. ولعلّي مطالب بكلمة عن لغة أبي شادي وشعره، فهل أجد ما هو أفصح وأبين من قول إمام المجددين الأستاذ خليل مطران عنه الذي أشرت إليه قبلاً، ومن قول شاعر مصر الكبير الأستاذ أحمد محرم: «تسير في جوانبه فلا تملّ ما فيه من حسنه المجدّد، ولا تبحر تستريده رونقاً وبهجة وتود كل الودادة أن لو استكثر صاحبه الأديب العريق...» أو إعجاب العلامة اللغوي الكبير الأب الكرملّي باقتداره اللغوي على التعبير اقتداراً مدهشاً حتى أنه ترجم رواية

(العاصفة) أشق روايات شكسبير في لغتها واستعاراتها بأسلوب عربي صميم آية في المثانة والإعجاز.

إن الدكتور أبا شادي في نثره ونظمه على السواء عظيم التمكن من اللغة العربية، وهو يستعملها بين الرصانة والجزالة والليونة والسهولة حسب المواقف والمناسبات، سواء أكان ذلك من تأليفه العملية كالطبيب والمعلم وتربية النحل أم في أعماله الأدبية المعروفة. وهو يزن كلماته وتعايره ويكره الثثرة والإسراف وإذا عيب عليه التركيز أحياناً ففي هذا التركيز متعة عظيمة للآديب المثقف الذي يجد الكلمة الشعرية لأبي شادي في مقام بيت لغز، والبيت بمقام مقطوعة لسواه، هذا إلى ما عمله أكثر ألفاظه وأبياته من الابتكار العجيب والإبداع المدهش على حد تعبير الأستاذ خليل مطران. وقد أعجب بلفظه وأساليبه كثيرون من الأعلام في مقدمتهم الأساتذة مصطفى جواد، ومصطفى صادق الرافعي، وعبد صادق عنبر، وهم من صفوة أعيان اللغة.

وللدكتور أبي شادي اطلاع واسع على علوم اللغة، ولكنه يبيع للشعراء ما لا يبيع للنثرين، حرصاً على جمال فنهم من أن يكون عبد القيود التقليدية السخيفة وحتى لا تضيق ملكتهم الأصلية ويصبحون في زمرة المنشئين الناظمين بدل أن يكونوا فنانيين مبدعين، إذ الواقع أنك قد تفسد الشاعر فيصير منشئاً لغوياً وهذا لا ينفع الشعر أقل نفع في حين أنك لن تخلق من اللغوي الناظم شاعراً إذا لم يكن الشعر من طبيعته ودمه. . يقول أبو شادي (ص ١٥٨ من ديوانه «أني ورنين») في «حرية الشعر»:

ما كنتُ من أهلِ الإباحةِ غافلاً أو مُزهِقِ الأدبِ الكريمِ قِيوداً
لكنْ للشعرِ الصحيحِ مكانةٌ هيهات يَلْفِغُها النُحاةُ صُعوداً

ما زلْ مَنْ أَحْيَا الْبَيَانَ بِوَحْيِهِمْ بل زلْ مَنْ حَسَبُوا الْبَيَانَ جُمُودًا
 وَالشَّعْرُ فَنٌ لَا يُعَابُ جُمُوحُهُ عن بعضِ أَحْكَامِ رُفْعِنِ بُنُودًا
 خُلِقَ الَّذِينَ سَمَوْا بِهِ وَبِقَوْمِهِمْ أمراء، لَا تَبِعُ^(١) الرِّجَالِ عَبِيدًا
 هذا هو الشاعرُ المصريُّ المجدُّ العَظِيمُ الَّذِي تُعْنَى «جماعةُ الأدبِ
 المصري» وغيرها من الهيئات الأدبية بالحفاوة بأدبه، والذي تَرَنَّ
 صيحاته التجديدية في العالم العربي فتترك آثارها الطيبة، والذي لا
 يرى الجمالَ الفني في نفسه بقدر ما يراه في آثار أقرانه في شقِ
 الأقطار، فيعمل على التنويه والحفاوة بتلك الآثار وينشئ لنا أقوى
 مدرسة حيَّة عرَفَها الشعرُ العربيُّ في جميع عصوره.

(١) تبع: جمع تابع وهو الخادم.

نقدٌ وملاحظات

١٥ - الأطياف في شعر أبي شادي

قرأت قصيدة من شعره أسماها «عودة الطائر» فملكت جماع مشاعري، وعانقت جميع عواطفني وإحساساتي والدكتور كثيراً ما يقول الشعر الرصين الجميل، ولكن هذه القصيدة كانت تضم إلى عناصر الجمال التي ألفتها في شعر الدكتور عنصراً آخر، جاهدت نفسي قليلاً حتى توصلت إليه وحللتته تحليلاً ولم أتمالك نفسي، بعد أن شربت روحي معاني القصيدة المسكرة، عن الصباح وإظهار عبارات الاستحسان الصادقة. ثم هنأته على هذا العنصر الجديد الذي بدا في قصيدته «عودة الطائر» وتمنيت له أن يساعده الحظ في استعمال هذا العنصر وغيره، في شعره الذي يلي هذه القصيدة، حتى يخرج على الناس بديوان جديد، يهاجم جمود أدباء العربية المتمسكين بالقديم. ويبلّ صدى الشعراء المجتدين الناهضين، فكان أن أجاب في ابتسامه الدائم أنه سيصدر في العام القادم ديواناً جديداً اسمه «أطياف الربيع». ومضت أشهر الصيف ثم عدت إلى القاهرة فلذا «أطياف الربيع» قد طبع فعلاً، فكانت مفاجأة سارة مذهشة... منها علمت وتعلم معي مبلغ دأب الأديب الكبير، وشدة تفانيه في الإنتاج والعمل...

أما العنصر الجديد الذي غمر هذا الديوان، والذي لمسته أولاً في قصيدة «عودة الطائر» فهو «الأطياف». أجل، عبادة جديدة الدكتور أبو شادي يعبد «الأطياف» ويقدها تقديساً، ويأتي في وصفها بصور

لا أكون مكابراً إذا قلت إنها الأولى من نوعها في الشعر العربي، فلذا
صحننا الآن في جراءة قائلين إن الدكتور فتح في أغراض الشعر العربي
فتحاً عظيماً مباركاً لم نكن مغالين؛ يقول الدكتور في إهداء الديوان:
اعيشْ بِسِمَةِ وَأَعْدُ زَادِي اشعْثَهَا وَأَشْرِهْهَا مُدَامِي !
هذا عجب عجاب! الدكتور يقات بشعاع الابتسامة... فيا له
من قوت روحاني طهور، والنظر إليه من «تحت الوسادة» كيف جعل
الأغاني تعشق النور من فاتته، فترى على أشعتها العاصفة ضياء الحياة
وأمانيتها...

خَبَّاتُ أَغَانِي الْحُبِّ نَحْتَ وَسَادَةِ بَسْرِيرِهَا
فَكَأَنَّمَا خَبَّاتُ بِهَا رُوحاً تَحْنُ لِنُورِهَا
وَاسْتَنَشَقَّتْ مِنْهَا الْعَبِيرَ وَقَلَّتْ مَعْنَاهَا
فَرَأَتْ بِهَا نُورَ الْحَيَاةِ وَحَظَّهَا وَغَنَاهَا

إن هذا التصوير الرائع والخيال الجديد ليشعران المرء بصور فتانة لم
يألفها الأدب العربي فيما نعلم... وهو لا يكتفي برسم الأطياف
وتصوير النور فقط بل يحلّل هذا الضوء تحت مجهره، ولا غرو فهو
رجل علم، وهذا أثر علم الضوء في شعره، وهذه قصيدة «إيلياو
صموئيل» برهان ناصع على تأثيره بعلم الضوء...

وترى زرقة السماء تراءت من رضاءٍ من الإله العليّ
نفذت من غضون نافذة البيت كطيف من السماء مَرَسْمِيّ
وتجمل المصباح بالنور أمواجاً كمروج الحياة في كل شيء
وبدا في سكونه الأمر الليل كعمى بمهجة الألمعي
وتخال الأصباغ في ملابس الشيخ بياناً من الشعاع السني
فهذه صورة حية كصور «السينما» تحس فيها الحركة وتحس فيها

النشاط... فزرقة السماء تراءت في رضاء الآله العليّ ونفذت من
غضون نافذة البيت كطيف... أجل كطيف عكس من السماء على
البيت... ألا يقول لنا علم الضوء إن الأطياف تنعكس...؟ فأبي
إبداع بعد هذه النماذج بين علم الضوء والشعر الرقيق المتجلي في هذا
البيت؟.

نفذت من غضون نافذة البية ت كطيف من السماء مرسى

إلا أن هذا هو الحديد الرشيق من المعاني الذي لم يكن منه في
الشعر العربي أثر من قبل... وهو يعشق النور في المرأة وهل المرأة إلا
عمود نور علوي فاتن، ولذلك فهو يحدث حبيته عن إجابة له وجهها
للربيع في قصيدته «رسالة الربيع» إذ يقول:

فأجبت به بنحية علوية وعشقت فيه النور من خديك

ظهور نور خدي حبيته من نور الربيع وضياهه ولذلك فهو يحيه
تحية علوية... ثم يوجه إليها الخطاب:

وحلّ من النوار ألثمها كما لثم الصباح النور من عينيك

أي والله! هذا هو الشعر الجديد الرائع... لم لا يلثم حل النوار
والصباح يلثم النور من عيني فاتنته؟... لا ريب أن القارئ يرى
أننا لم نكن مغالين حينما قلنا إن هذا فتح جديد في معاني الشعر
العربي...!

وهو في أغروده وعند الجبل الراصد يقول عن صورة التي أحبها،
فيدع غاية الإبداع:

فلثمت ألوان العزاء بوحيا لثم الضريس في الظلمات
وبكى لكن بالأسى في نشوة فتلاقت البسات بالعبرات!

إلى أن يقول شارحاً لحبيته حاله النفسية :

فإذا عُنيَتْ بها خلقتْ بليها قِباً فصار النور من آياتي!
فعلاً صار النور من آياتك، فهل عُنيَتْ بها حقاً؟

ثم نجيء إلى نشيده الخالد «عودة الطائر» الذي كان له أكبر الفضل في إثارة اهتمامي بهذا العنصر الجديد في شعر أبي شادي، ألا وهو عنصر «الأطيار» وكان بوذي أن أنقله بنهاية للقارئ. فهو بصور قصة لقاء بين الشاعر وهواه وحذف شطرة واحدة تشوه الجمال الشعري وتسيء إلى مجموع القصة، بيد أني مضطراً إلى إيراد ما يتعلق بالنور فقط.

وعلى من يريد أن يتمتع بتلاوة هذه النحلة الجريئة الجميلة حقاً أن يعود إلى الديوان... يقول الشاعر الكبير واصفاً الجو الشعري الذي ضمه وحبيته :

النورُ مسكوب رشيق كالصفو في دنيا المموم
خمرٌ من الظرف الرقيق قد هُيئتْ خلف الغيوم

هذه الصورة قوية رائعة، وأعترف أن كل تعليق عليها مني أو من سواي فيه إساءة إلى دوحها في الذهن وأثرها في الروح، إلى أن يقول :

أرسلتُ روعي حرةً بين الأغاني والضياء
حتى أراها مرةً تحيا حياة الأنبياء

وهل هناك أصفى من الأغاني وأظهر من الضياء؟ فأرسل روعي يا شاعري كيفما تشاء وأطلقها بين الأغاني، وألق بها في وهج الضياء، فإنك إن فعلت فقد تحققت لك حياة النبوة الطاهرة الصافية، ولك عندها أن تقول :

خذ قبلي أخذ السنى من كل أطراف الربيع
فيها الحرارة والسنى فيها البشاشة والدموع
لا ريب في هذا ولا جدال مطلقاً، فأنت قد أرسلت روحك على
سجيتها تخوض الأغاني والضياء فتطهرت من كل رجس، وصارت
روح نبي... أجل، روح نبي، ثم عدت وأنت في حالتك من
الطهارة والنقاء تعطي قلبك كأطراف الربيع تحوي السنى والحرارة،
وتجمع بين الدموع والبشاشة! ومن قصيدته (الأغاني الصامتة) يحدثنا
عن شعره فيقول إنه ناطق في صمته مثل...

الشمس من قبل الفجر توحى بنورٍ للعاشق
والنورُ يلمح في السرِّ

وهل العاشق ممن يرون نور الشمس بشروقها فقط؟ يحدثنا الشاعر
أن الشمس توحى إليه وحده بنورٍ قبل الفجر يلمحه على انفراد، ثم
يأتي برأي جديد هو أن (النور يلمح في السر...) صدقوه أيها الناس
فهذا شعر جديد، يؤدي رسالة جديدة تستأهل الإيمان والاعتقاد!

وقد يذم لك الشاعر النور في بعض مظاهره، لا لأنه عديم
الجدوى ولكن لأن صورة جديدة له قد استرعت اهتمامه، ففطت على
المظهر الطبيعي... فهو يذم نور الصباح بل يطفئه... أجل يقول لنا
عن موقف له مع فائتته (في المبد):

أبيننا النور: فالقبلا ت شعلة مهجتي الحرى
ولم أحفل بصوت الوق ت أو بهواجس الخبى!

فهو يرى في قبلاته ضوءاً يكفي لإضاءة المكان، فلا داعي إلى النور
الكهربائي! ويبدو تقديسه النور وتغانيه في عبادته كذلك في قصيدته
(الجمال العريد)، وفيها يقول:

فَبَلَّغْتُهَا فَلْتَمَّتْ أَحَدَ	لَامِي وَأَطْيَافَ الرَّبِيعِ
وَضَمَمْتُهَا فَضَمَّتْ أَغْدَ	حُلَى النُّورِ مِنْ رَبِّ وَدِيعِ
مَا هَذِهِ الْأَضْوَاءُ وَالْ	أَلْوَانُ مِنْ رَبِّي الْكَرِيمِ؟
أَكْذَا الْمَصُورُ مِنْ سَمَا	ءِ الْفَنِّ يَبْتَدِعُ النَّعِيمِ؟
فَتَبَسُّمْتُ وَتَنَهَّدْتُ	بِالنُّورِ وَالنَّارِ مَعَا
وَاسْتَسْلَمْتُ وَتَمَنَّعْتُ	حَتَّى دَنَا مَا امْتَنَعَا
رُوحَانِ قَدْ خُلِقَا كَمَا	خُلِقَ الضِّيَاءُ مَعَ الْحَرَارَةِ
يَتِمَّازِجَانِ تَهَافُنَا	وَكَلَاهُمَا قَدْ نَالَ ثَارَهُ!

هو يلثم في لثمه إياها أحلامه وخیالات ربيعہ، وهو يضم في ضمه إياها أغل النور من الربِّ الوديع، ثم هو يعجب من ألوانها وأضوائها ويدهش من صنعة الله القدير ثم هي تبسم نوراً وتنهّد ناراً، وتستسلم ثم تمنع، ثم تستسلم فتقع بين أحضانه وتمتزج روحه بروحها كما تمتزج الحرارة بالضياء في تهاوت وشوق، حتى ينال كل منهما من صاحبه ثاره... ألا أنها قصة شعرية بارعة، وأكاد أقول إنها من أروع النماذج (المثالية) في الشعر العالمي هذه الأيام.

ثم تراه يقول في القصة نفسها بعد ذلك:

والنور تضطرب الظلال به اضطراب العاشق.

كقوامها الساجي على هذا الفراش الخافق
فسألته الغفران والأضواء تضحك من سؤالي
لكنها كانت يدينا للموصال وللخیال!

دائماً النور والظلال... فهو هنا تضطرب الظلال به اضطراباً رشيقاً، مثل قوامها الممدود على الفراش... ثم هو يسألها الغفران فهذا الحديث... (الأضواء تضحك من سؤاله)... يا للروعة في

التصوير...! الأضواء تضحك وتسخر... قلت لك إن الرجل يعنى
بالنور كثيراً، وما نحن نراه يتفنن في الكلام عنه... وهو يقول في
أغنيته (الفنان) وهي من أروع الشعر القصصي الجديد:

وقد أدري ولا أدري سناها في ذراعي
سناها نعمة الدنيا هواها يبدع الحيا
أشم عبيرها الفتان في سكر يحبرني
وأشرب هذه الألوان من نور يداعبني
أطلي يا حياة الروح من عيني تحيي

شراي منك أضواء وقوتي أن تناجيني!
هنا نرى سناها في ذراعيه، أجل سناها الذي هو نعمة الدنيا...
وهو يشرب الألوان من نور يداعبه... يا له من وصف بارع للقبلة يضع
الشاعر في مصاف الخالدين من الشعراء...

وأشرب هذه الألوان من نور يداعبني
ثم هو يرجوها أن تظل في عيني فتحية... وكيف لا وهي حياة
روحية؟ فهو يشرب منها الأضواء... ويقتات بالناجاة... يا
للروعة...! هل هذا شعر عربي؟ هل هذا كلام يقوله مصري؟ لقد
كدت أنهم حواسي وأخطيء فكري وبصري... ولكن إما أبو شادي
قد أضاف حقاً هذا العنصر الجديد إلى شعره، وتكلم، عنه بهذه
الكثرة وهذه الفتنة والدقة في التصوير مما لم يسبق له مثيل في هذه
اللغة، فقد حق لنا أن نطمئن على مستقبل الشعر في هذا البلد بل في
البلاد العربية، ووجب علينا أن نؤمن برسالة أبي شادي الجديدة.

وهو يتحدث عن الظل أيضاً بما لم يعهده الأدب العربي من قبل،
فتراه في «شاطيء الأحلام» يقول:

ومنى من الأحلام ترقص حولنا ومن الحقيقة ما حكاه الظل

أي ظلّ هذا الذي يحكي الحقيقة؟
إن العين المجردة والفكر الساذج العادي، لا يمكنها أن يلمسا هذه الحقيقة التي أحاط بها ذهن أبي شادي الجبار..

وانظر إليه كيف يتلاعب بالظلال هنا تلاعباً فنياً رقيقاً في قصيدة «في المعبّد»:

في الهيكل المصني إليها رهبةً حتى الظلال به وقفن ظلالاً
ويقول في «ميلاد الربيع» وهي قصيدة ارتجلها أمامي في مناسبة خاصة:

وانت به الأيام كالأطياف من حصنٍ منيع!
أي عالم سحري هذا الذي يعيش فيه أبو شادي... لكأنّ به وهو رجل المدنية الحديثة، الواقف على أسباب الحضارة الراهنة، يعيش في عزلة أكيدة، في حصن أو في دير، لا يعاشر سوى الأطياف ولا يتخذ من دونها أصدقاء.

وأعتقد أنني لو سرت معك في تتبع ما قاله الشاعر في ديوانه عن «الأطياف» لما كفتني رسالة كاملة، وأجدر بك أن تطلع على جملة الشعر في ديوان «أطياف الربيع» فتريّ كما رأيت أن الرجل قد أبدع الإبداع كله في رسم الأطياف رسماً أجده في نفسي المرأة الكافية على التصريح بأنه الأول من نوعه في اللغة العربية، وحسي أن أجعل من هذه الدراسة مساهمتي في التعليق على المحاضرة القيمة التي أَعدها الأستاذ محمد عبد الغفور تحليلاً لأدب أبي شادي الذي يعلن «أن الحياة أشعة وظلال»!

والذي آراه أن الشعر العصري عندنا قد تطور جداً فهو ليس كالشعر القديم من حيث عبادة اللفظ، والحرص على البديع

والمحسنات اللفظية، ولكنه شعر مملوء بالمعاني القوية الرائعة... شعر يتعبك حتى تصل إلى معانيه القوية الجزلة... شعر لا ينظم للنسبية وترجبة الفراغ، وإنما ينشد للتعبير عن حالات نفسية قوية، ولحل مشاكل اجتماعية عديدة، بل هو شعر يتكفل شرح بعض النظريات العلمية العريضة في خيال رائع... وأحب أبو شادي أن يمثل هذه المدرسة المجددة في الشعر خير تمثيل، والذين يخالفون المجددين في الشعر كالذين يخالفون المجددين في أي شيء آخر سواء بسواء، يصرخون ويأبون الشيء الجديد، ولكن الحياة تأبى إلا المضي في سبيلها، فلكل قوم تقاليدهم ولكل جيل تفكيره، وهؤلاء لا يتمتعون حتى يسدل عليهم النسيان ستاره العنكبوتي إذا لم يسارعوا إلى اللحاق بالمجددين وقبول آرائهم ومحاولة تذوق أدبهم الذي يعبر في صدق عن شعور الجيل ويردّد صدهاء.

فإن كان لنا أن نفتخر بديوان «أطياف الربيع» فغاية فخرنا أنه يمثل اللون الذي نهض بدعوتنا من أجله، ونشادي دائبين في سبيل تحقيق نجاحه في الشعر العربي، وليس هذا النجاح عزيزاً ما دمنا نكافح في سبيل المبدأ الذي ندين به، وما دمنا نساير القافلة ولا نتأخر عن صفوف المجددين.

١٦ - السخط على البيئة في شعر أبي شادي:

الآن وقد انتهيت من قراءة معظم شعر الدكتور أبي شادي أستطيع أن أقول - لا بل أجزم - أنه سيخرج لنا بعد عامين أو ثلاثة على الأكثر ديواناً لا نلمح به أثراً للحب والجمال، وكم طغيا على شعره طغيان السيل الجارف! وقد رأيت أن أتناول بالنقد هذه الناحية التي لم يتناولها الأستاذ محمد عبد الغفور في محاضراته بل ذهب إلى عكسها

كما ذهب الأستاذ الصيرفي في تعقيبه على ديوان (أطيف الربيع) راعني منه أن كنت أرى في دواوينه الأوائل تفانياً في الحب وفلسفة الحب البحت، وقلما تعدى هذا الموضوع إلى غيره من أمور الحياة الاجتماعية ثم راعني أن أصبحت أرى هذه الظاهرة تضحل في شعره وتنعكس الآية في نفسه حتى كدت أقول إنه أصبح شيخاً يتورع عن هذه الظاهرة وهي التي تسود عادة شعر الشباب لولا أنني أعرف الرجل وأعرف أنه لم يخض غمار الشيخوخة بعد! فتساءلت نفسي عن سر هذا التدرج التنازلي من ناحية كم ملكت نفسه وسيطرت عليها، إلى أن اهتديت إلى ناحية أخرى في نفسه وجهت شعره إلى تدرج تصاعدي للون من ألوان الحياة الاجتماعية فالرجل يعم في الجهد إلى حد الإجهاد، والرجل ينظر إلى الحياة المصرية فلا تعجبه على اختلاف بيئاتها - وجدها ساقطة من ناحية الأدب فأخذ يهيم جواً صافياً ليعيش فيه الأدباء تحت سماء البراءة - وجدها ساقطة من ناحية الشعر فأخذ ينشئ مدرسة يذب فيها نفوس الشعراء - وجدها ساقطة من ناحية الاقتصاد فأخذ يعالج النواحي التي يجب أن تتجه إليها الجهود الاقتصادية في هذا البلد - وجدها ساقطة من الناحية الصحية فعكف على خدمة المرضى، مرضى الجسوم بعد أن عالج مرضى النفوس - وإذا كانت هناك ناحية أخرى فاته علاجها - ولست أدري ما هي - فمن يدري؟ ربما خلق حركة جديدة ليتم بها رسالته المتشعبة التي يفنى في سبيلها.

ولعل صاحبنا في بدء حياته كان موفقاً فيما كان يرمي إليه، وذلك لأن جهوده لم تكن ظاهرة ولم تكن محسوسة - وذلك على ما اعتقد - وجه شعره نحو الجمال وعبادة الجمال وأفسح له من وقته مكاناً للحب فصبغ شعره بصبغته.

واستمر صاحبنا يواصل جهوده المتباعدة إلى أن ظهرت آثارها فحقد عليه الموتورون والبلاء وعملوا على محاربه فرأهم يعيشون فساداً في كل ناحية ولجها ورأهم يكيّدون له ويضعون العراقيل في كل درب سلكه. ومن هنا بدأ الرجل يقاوم هذه المقاومة ويوجه جهوده نحو تذليلها وإصغارها مما أضعف في نفسه الحب وعوامله وملا قلبه بالسخط على هذه البيئة الجانية، فإذا هو لمح ابتسامة بريئة شاذة عن الوجود الحاقّد عاد قلبه إلى صفائه الأول فأغضى وعفا عن زلّة الحاقدين، أخذ صاحبنا كما قلت يخفّف من لهجة الحب في شعره ويعدد جنائيات البيئة ويعمل على إصلاحها بكل ما أتاه الله من قوة هي قوة القلم. وهكذا بدأ في تدرجه التصاعدي نحو السخط على البيئة: فقرأ يبدؤه في بعض دواوينه الأولى بقصيدة أو اثنتين عن هذه الناحية وتراه يقف الآن في ديوانه الأخير (أطيف الربيع) وفي يديه نحو ثلاثين قصيدة ساخطة لهذا الديوان وحده:

والآن أحدث القاريء عن شعر السخط في ديوان (أطيف الربيع) وبيدوك صاحبنا بقصيدة «الفنان» ومطلعها:

أماناً أيها الحب سلاماً أيها الأسى
أتيت إليك مشتفياً فراراً من أذى الناس!

فانظر كيف يمضي صاحبنا لحظة في هيكल الحب ليستريح من عناء ما يلاقي من الناس؟ أم هو الحب الذي يشفق عليه فيدعوه لحظة ليستريح من هذا العناء فيقول له:

حنانك أيها الداعي فانت ملك أنفاسي
فررت وحوّلني الدنيا تحارب كل إحساسي

تشعبت جهود الرجل كما قلت فكان له في كل شعبة جمع يحاربه،

ثم ما لبثت أن توحدت هذه الجموع لتتقض عليه، فيقول للهيكَل .
 فررتُ إليه مِنْ سجن فرارَ المذنب الشائرُ
 وهذا الدهرُ يتبعمني بجيش حائقي زاحرُ
 عجبني له إذ يقول إنه يفرّ (فرار المذنب) وهل هو أذنب؟ كلا!
 ولكن العاقل في دولة المجانين مجنون وهم العقلاء، والبريء بين
 المذنبين مجرم وهم الأبرياء! حتى الخواطر والأحلام لا تروم للرجل
 منجاة من العذاب في حين أن غيره يجد من أحلامه عزاء لآلامه،
 فاستمع لقوله:

فما لخواطري الحيرى تروم اليوم تعذيبى؟
 وما لي أشهد الأحلام كالأيام تفري بي؟
 وكان صاحبنا موزعاً بين تنازع الحب والبيثة، فإذا هدأت نائرة
 ذاك لم تهدأ هذه، وإن هدأت نائرة هذه لم يهدأ ذاك! هذا جبه مرة
 فاستراح إليه هاجراً فقد تلك الجموع وما تنطوي عليه نفوسهم،
 وراح يردّد وهو في معبده:

أحقاً نلت ما في الخلد من معنى وإحساس؟
 فيا لنعيم الوافي وإن شُرِّدت في الناس!
 هنا يعترف الرجل أنه أصبح شريداً في الناس، محارباً منهم،
 مضطهداً عندهم، فهل هو سعيد في جبه؟ وهل هو منعم لديه؟ هذا
 ما لا أجيبك عليه، وهذا ما أعتقد أن صاحبنا ليس متأكداً منه فهو
 يقول: (أحقاً؟) ويرتاب! ويقول: إن كان حقاً أنه نال حظاً في جبه
 فيا لنعيمه الوافي وإن شرد في الناس. وإذن فهو يرضى بنعيم الحب
 وعذاب الناس، وأكبر ظني أنه معذب من كلهم ولكنّه يطمئن إلى
 الحب أكثر مما يطمئن إلى الناس، فالناس دوماً في حرب معه بينما

الحب يتأرجح عنده بين العطف والقسوة فيقول:

أهذي غايَةُ الحب في الحرمان تعذيبُ
وفي الإحسان تطيبُ فتعذيبُ فتطيبُ
ولكن ما الذي جنى على صاحبنا وطوره كل هذا التطور؟ هما اثنان
عقله ومهجته الحيرى، ذلك جنى عليه عند الناس، وهذه جنت عليه
عند الحب، فجعلته يشك ويتألم من هذا الشك فيقول:

فما لي لم أعش غداً غيباً أقتل الفكرة
والقى الحب مبساً وأدفن مهجتي الحيرى!
ثم ألم أقل لك إنه يسخط على الناس حتى إذا لاحت له ابتسامة
تناسى ماضي السخط ونظر إلى الحياة بعين جديدة مبتسمة. إنه كذلك
في حبه يتناسى حرمان الماضي بلفيا الحاضر ويبنى عليها أملاً للمستقبل
فيقول:

وأصفح عن أسى الماضي وإن ضحى مسراتي
فهذي نعمة الماضي أتت من نعمة الآتي

وهو لا يحارب البيئة لأنها تحاربه ولكن لأنها تحارب جهوده وتقاوم
رسالته، ثم هو ينسحب من الميدان ليشرف على الحياة فيرى الشهوة
والأنانية تجمعان التناحر بين الناس ديدناً، ويرى الحزبية والانتفاء
للمعصيات وموت المبادئ الحرة والميل إلى الصوالح الشخصية سبباً
يجز في رقبة البلد واستقلالها فيصرخ ولكنه لا يرى تحاوباً بين روحه
وروح القوم وينادي فلا يجد ملجأً لندائه؟

وهو في قصيدة (الياس الساحر) يظهر لك كل هذه الخواطر التي
تختلج في نفسه فيقول:

وطني العزيز بكيتُ حظك حينما خذل البنون منك خذل الفاجر

تخذوا التنايذ ديدناً وتفرقوا
جرحى التخاذل تحت جيش ظافر
لولا تنايذهم لأذعن بأسه لهمو فإن الحزم أبلغ ساحر
ومن الآيات الآتية تلمح الصرخة التي حدثتك عنها:

والآن يا وطني الذليل ألا فتي جم البطولة مستقل الخاطر
يقضي على هذا التنايذ ضارباً بعوامل التفريق ضربة قاتلة؟
إننا بمعهم للتعاون وحده حين التعاون قاهر للقاهر
يشد الفرد المستقل الخاطر الحر الرأي ولكنه لم يخلق بعد! تلك
الصرخة التعاونية جاءت ضمن رسالته، فهو لا ينف بها مرة واحدة
لأنه يشفق من قرعها لسمع القوم مرة تتلاشى بعدها في الهواء فهو
يرتددا مرة أخرى في قصيدة (سياسة الهوان) فيقول:

وطني نُكِبَتْ بكلُّ غرٍّ نافع في شعلة الحقد المدمر لا يني
كلُّ يمحّر نده، وكأئما المجد أن يؤذي أخاه بمطعن
فإذا التعاون مسبّة وجريرة وإذا التنايذ مثل داء مزمن
وهكذا تتشبع روح أبي شادي بنظام التعاون الذي خبره في الزراعة فياً
إلا أن يحمل هذا النظام على التدخل في كل النواحي الاجتماعية وكم يسوؤه
إلا أن يرى أثره له، ولكنه يرى التشيع والحقد والإيذاء لا تزال ديدناً لمن
بسميهم سياسة الهوان الذين يصمون آذانهم حين يقول عنهم:

لولا سياسة الهوان لما غدا هذا الهوان ينال عزة موطني

ولو عرفت أبا شادي في سجنه الاختياري لاشفت عليه، هو في
سجن يبرز له من كل حائط فيه سكين يود لو يقطعنه، ولكنه غير...
كما أنه محيراض خروجه كبح لنفسه الكبيرة النائرة.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت من مرادها الأجسامُ
ولكل يعرف أن صاحبنا يمارس ألواناً من الثقافة متنوعة وما على
الله بمستبعد أن يجمع العالم في واحد! وهو مؤمن بعمله إلى حد
بعيد، ولذلك فهو لا يترعزع ولا يميل ولكنه يستاء ويمتعض حبراً على
ورق فحسب! وكم من مرة يندب حظه الذي جرُّ عليه هذا الحقد
وهو أزهق الناس في الحقد، فيقول:

أتناول الحشرات كأس مدامتي والحظ يخطو عائراً ويدبُ
حتى الحسرة أصبحت خمرته كما عثر الحظ وطالت عثرته!.

صاحبنا شاعر مطبوع، ومتخيّل مفتن، ومطلع واسع الإطلاع،
ولكنهم يأخذون عليه إكثاره إذ إن له من الشعر ما لم يتح لشاعر في
القرن العشرين ولكن هل يعيه هذا الإكثار؟ وهل هناك وجه لحكم
الحنابلة عليه؟ لا أعتقد بل أعتقد أن الفرق بينه وبين غيره من
الشعراء هو أن عنده مادة ومادة غزيرة!.

فالشاعر كآلة الطباعة إن وجدت (الأصول) صورتها وعددها وإن
لم تمجد فإلى الصمت والسكون! ومن جهة أخرى نرى أن في الحديث
السائر كثيراً من الشعر الذي يتحد مع الشعر الذي يكتبه الناظمون
من قوة العاطفة، وأبو شادي يؤثر أن يسجل عاطفة الحديث الذي
يقوله عن عاطفة في هيئة شعر منظوم، فهل بعد هذا يجد الحنابلة
مجالاً للحط من قدر شعر صاحبنا بادعاء الإكثار؟.

هكذا يجارب أبو شادي، وأشد الكفاة عليه هم الحنابلة المنتسبون
إلى الأدب فهل يأبه بهم؟ كلا فإنه يكتب (لنفسه ثم لمن له نفسه) على
حد تعبيرة:

شعري لنفسي، ثم بعدُ لمن له نفسي، وليس بما يُباع ويُفْتنى!

والذي لهم نفسه والحمد لله خلاصة طيبة بريئة... يقول للحنابلة
في مقطوعته (قصيدتي الكبرى):

أنا لا ألوم الغافلين إذا أبوا شعري وعابوا روعتي وروائي
هل يدركون قصيدة لعواطفي وهم الذي أبوا قصيدَ حياتي
أحيا لغبري، والدقائق ملؤها نغمي وملء دموعها آياتي
فقصيدتي الكبرى حياتي كلها وأقلها شعري وهم عداي!

فلسفة وأي فلسفة! أمن ينكر كليته يستحل جزئته! أجل... إن
حياة صاحبنا ملحمة كبيرة بل هي دراما عنيفة وما الشعر إلا ناحية
من نواحيها المتعددة المتشعبة! .
ثم يختمها بقوله:

إن لم يُصَبَّ نَغَمُ الصَّخُورِ فَحَسْبُهُ سَمْعٌ مِنَ الْأَرْبابِ وَالرُّبَاتِ!
فلتسَدَّ النَّاسُ أَسْمَاعَهَا وَلِيَنْطَلِقَ هَذَا الشَّعْرُ نَحْوَ الْأَوَّلِيِّ لِيُشْجِيَ
مَعَاشِرَ الْأَلْهَةِ هُنَاكَ...!

وصاحبنا مع ما يلاقي في الأرض من غبن يحب الحياة عليها ويحب
ما وكلت إليه الحياة من أعمال النحل والدواجن والزراعة والشعر
فيقول في قصيدة (أَمَّا الْأَرْضُ):

ما النحل؟ ما هذي الدواجن كلها
والفرس إلا الشعر ملء حنيني!
والناس تمجب من تَوَزَّعَ خَاطِرِي
وهو المَوْحَدُ فيكَ غَيْرَ غَبِينِ
أُمَاءَ: مَوْثَلٌ كَنَ لَبَّ شَاعِرٍ نَجْوَاكِ فَهِيَ مِفَاتِي وَتُصَوِّفِي!



ولو قد أعارهم ما يعيره مثلي ومثلك من المكان في النفس لغلبه
اليأس فانتحر، ولكنه يمزج كأس الهم بقليل من المعسول فيشرب

ويستمرىء ما يشرب أمام الناس، ولكنه في نفسه ينكر هذا المزاج
ويعلم ما فيه فيقول:

إني الفنى الباكي الطروب وما درى قلب مجال تألمي وجراحي
ولو استطعتُ حُجبت عن ربي الذي عانيت في الأحزان والأفراح
فهو يحجب همه عن الناس ويكتمه في نفسه ولا يود أن يظهره حتى
إلى الله ولكنه لا يستطيع! ويقول عن هذه المواربة:

هذي حياتي كلها تعبٌ على تعب، وأنسراحٌ على أنسراح
وكانني جاوزتُ خلجان الردى بسفينتي فتعمتُ بالافداح
والدهرُ يعلم أنني في نشوتي في قبضة الجراح والسفاح!



ما أظلم صاحبنا في هذه الدنيا التي لم يخلق لها! ودّ لو عاش في عالم
آخر وبين ناس آخرين لا يجرمون ولا يحقدون ولكننا ندخل هذا
الزعم تحت طي المثل العليا التي يكونها الشعراء ولا يجدونها فهو في
ليله وهي الأونة التي يهجر فيها ظلم البشر ليخلق كوناً من الخيال
يمنيه ويواسيه ولكن أين يكون هذا الكون؟ وهل هناك من كون غير
الحياة إلا الموت؟ وهل يجد في الموت جواباً لرجائه؟ هو يقول ذلك
وسائل فاسمع له:

وما الليلُ إلا محبسي، وتطلعي إلى عالمٍ نائي الحدود نزيه
إلى عالمٍ لا تشعر الروحُ عنده بحربٍ خصيمٍ أو بجرمٍ سفيه
وما خلقتُ نفسي لدنيا كهذه وإن عاب هذا الكونُ لؤمَ ذويه

ولو أطلّقت منها لما شارفت سوى فناء، فهل كان الرجاء يليه؟



ثم يعبرُ لك صاحبنا عن هذه الشخصية التي تحاول أن تنال منه بتعبير ظريف - هو ينسبها إلى البيضاوية التي تردّد ما تسمع ولا تعي ما تردّد!

والحقيقة أن الأدباء في مصر يعانون من الأبواق أكثر شراً مما يعانون من النقاد، فقد شاء فريق - لا نحبّ ذكر اسمه ونحن في موقف النقد الأدبي لا التعريض الذي لا نحبّه أن يحط من مكان شعر أبي شادي فنفسخ في أبواقه التي راحت تردّد ما نفخ فيها في أحط الوريقات السائرة! وكم يجب أبو شادي أن يظهر النافخ يودّ أن يتواري المنفوخ فيه فيقول للأخبر:

البيضاء تشور ضدي يا لها من غيرة فانا الذي أخشاها!
باعدتها جهدي، فإن مقالها كمقالة للسوء لا أرضاها!
ثم يقول لها:

سيان مدحك أوقلاك فجنبي صوتاً كصوتك أن ينال خيالي
ولم يكن صاحبنا بالذي يابه بها ولكنها تفلقه ظاهراً فحسب فيقول:

ما كان رأيك بالذي أعني به لست الذي ينفو إلى الأبواق
لكن صوتك في كآبة وقبحه قلّ، فما حظي من الإقلاق؟!



ألم أقل لك منذ حين أن صاحبنا يسخط ويتضجر، فإذا لاح له ابتسامة بريئة أو لحظة هينة غفر وتسامح؟

ها هو يقول:

كم أملاً الدنيا ثناءً أو رضىً عن لحظةٍ للانس والإسعاد
وأنا الذي أحيا الزمانَ شقاؤه فأعود أغفر شقوتي وحدادي
ثم ألم أقل لك إن صاحبنا يحب الحياة ولكنه لا يحب ما عليها من
التنازع والتنابد والتحزب؟ ها هو يقول:

إن الحياة جميلة، لكننا قتل الجمال تناحر الأضداد



البيئة لا تحمي بلؤمها على فردٍ ولكنها تتعداه إلى الجناية على البلد
- وما هو البلد؟ هو مجموع الأفراد، ولكن إذا اجتمع هذا المجموع
ليحارب فرداً فإن ذلك مبالغة في الظلم - وصاحبنا محارب من
المجموع جملة واحدة - فهل هو ناقم على هذا البلد؟ كلا! فهو حامل
منه ما حمل عن رضى واصطبار، وما أشبهه حين يقول:

بلادي! بلادي! أنت في كلِّ حالةٍ بلادي، وإن لم تعينى برغائبي!
يقول من قال:

بلادي، وإن جارت على عزيزةٍ وأهلي وإن ضنوا على كرام!
وكم من مهزوم مغبون نصره أبو شادي فراح هذا المهزوم المغبون
يكيل له السب ويحمل له الحقد وأحسب أن ذلك ينطبق على مثل
إنجليزي لبرنارد شو: «If pity is akir to iove, gratitude is akir to
the other thing أي أنه إذا كانت الشفقة طريقاً إلى الحب فإن
الاعتراف بالجميل طريق إلى الكراهية، لأن المعترف بالجميل يشعر أنه
مدين لصاحب الجميل، وهذه المديونية عبء على كاهله كم يؤد أن
يتخلص منه حتى لا يكون هناك تسام وتدل Superiority or

«Inferiority» - وقد غمر صاحبنا الكثيرين بجميله فخلق له الكثيرين من الأعداء عن طريق غير مباشر! ويقول صاحبنا في ذلك: فجوزيت بإيلام من كل عائر.

فجوزيتُ بإيلام من كلِّ عائرٍ
أغثتُ، وبالحرماني من كلِّ صاحب!

وأريد أن أشيد بمعنى سامٍ ورد في شعر صاحبنا، إذ يقول:

كان الجميع استوثقوا من عبيتي وغالوا بيأسي مُذْ تغالتْ مطالبي
وما أنا في نفسي لأطمح مرة لأكثر من عيشي بعزلة راهبٍ
ولكنْ طموحي للديار التي لها حنيي، وإن باتت ديارَ المصائب!

فالناس يعتقدون أن صاحبنا يرمي من وراء جهوده إلى نفعٍ لنفسه والحق أن مطالب الرجل تتناهى إلى وطنه فهو لا يريد لنفسه أكثر من عيش راهب معتزل - لا، بل الواقع أنه يعيش عيش الراهب ولا يطعم في أكثر منه، وأما البيتان الأتيان فليس فيها أكثر مما قلناه في المواقع السابقة:

ولا بأس لي إلا ضميري ومبدئي ولا مجد لي إلا خلوص مواهي
وأكبرُ ذنبي همة ما تراجعتْ

فلن يرهب الإيمان أقى المواقب!

ويأى في قصيدته (النفوس المريضة) إلا أن يضمنا بيتين من شعر المتنبي يشكو فيها ما طالما شكاه صاحبنا وما هما:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع النُدَى في موضع السيف بالعل
مُضِرُّ كوضع السيف في موضع النُدَى

ومن شعر أبي شادي في هذه القصيدة:
 ونفسي التي تهوى حياةً بعيدةً
 عن الحقد والآلام والكبد والجدي
 يعزُّ عليها أن ترى الشهم في الورى
 طمعناً لمن أعطى الحياة لهم فدى

ثم يحدثك عن مرض النفوس الذين أهمل علاجهم بينما حالته كثرة
 المستشفيات في أنحاء البلاد لتعالج مرضى الجسوم؛ أم أنه يلوم نفسه
 ويتهمها بالتقصير في معالجة النفوس بينما هو مكبٌ على معالجة الجسوم
 في عمله فيقول:

شُغلنا بأمراض الجسوم وعندنا نفوسٌ بأمراضٍ تجاوزت المدى!



ويذهب صاحبنا إلى السينما فيشاهد رواية «المومياء» ويرى الميت
 يخلده الحب ثم لا يلبث أن يعيش؛ بينما صاحبنا يرى أن الأحياء في
 مصر أقرب إلى المومياء فيقول:

أسيرُ وكم أرى في الناس حولي أسيراً حاله كالـمومياء
 كأن السحر جرَّده... ولكن يلوح به التعمُّق في الفناء
 فابصر فيه صورة آدمي وما ألقى به معنى الرجاء
 ويعود إلى نفس هذه الشكوى في قصيدة أخرى عنوانها (مصر
 الحية) ومنها:

قد ساء حولي كل ما ألقاه من موت الحياة
 جئتُ وأشباحُ وأطيافُ العتاة من الجناء
 ومهازل للصاغرين، الطاعنين المنقذين

العابثين الأثمين إلى الأبوة والبنين

ثم يحنّ إلى بنت النيل وسحرها، وإنها لعزاؤه في حياته:

يا بنتَ موطني الحبيبِ ورمزَ للافياء

لم يبقَ غيرُكِ للمحبة والطهارة والرجاء!

وفي قصيدة أخرى يسميها (سباق الأموات) يعود إلى التشاؤم

ويشفق على مصر من نزعة الشهوة التي تأصلت في النفوس فيقول:

لم يبقَ إلا أن يكفُنَ بَعْضُنَا بعضاً وأن تتسابقَ الأمواتُ

ماذا يُرجى بعد أن طعن الهوى روحَ الإخاء - وسادت الشهواتُ

ويعود صاحبنا في آخرها إلى صرخته الأولى فيقولها في استعطاف

وشبه استجداء:

والآن يا أبناء هذا الوادي الأسيرين عواطفني وودادي

الحاملين أمانةَ الأجدادِ هل تقلُّرون نصيحتي وودادي

وتبدّدون تنافسَ الأحقادِ إنَّ الزمانَ لكم بالمرصاد!

ويح! ماذا يقول؟ الأسيرين عواطفه وفؤاده! مسكين... بعد

كل هذا الطعن من أبناء بلده في جسده ونفسه يقول إنهم يأسرون

عواطفه وفؤاده!



وكيف اتفق لهم أن يأسروا عواطفه وفؤاده وهو الذي يقول فيهم

في قصيدة (الناقمون):

الناقمون! نعم! لكم أن تنقموا كم يفقد المتعلمين مُعلِّمًا!

ذنبي وجودي في مجاهل بيثة صحراء جاحدة تُقلُّ وتُسعمُ

مهدت من هذي المجاهل مثلما علّمتكم بالأسر ما لم تعلموا

فَرَجْتُ بِالْحَسَدِ الْعَنيفِ كَأَنِّي فِيهَا أَجُودُ بِهِ أَنْأَلُ وَأَغْنِمُ
 أَسْفَاً عَلَى وَقْتِ أَضَعْتُ وَلَا أَسَى!
 مَهْمَا شَكُوتُ فَلَسْتُ مَنْ يَتَنَدُّمُ
 مَنْ ذَاقَ مَهْزَلَةَ الْحَيَاةِ فَلَانَهُ
 يُعْطِي وَيُسْخَرُ مِنْ تَجَاهِلٍ مَنْ عُمُوا
 يُعْطِي وَيَأْبَى أَنْ يُدَانَ، وَإِنْ يَكُنْ
 يُنْسَى لَهُ الْفَضْلُ الرَّجِيحُ وَيُرْجَمُ

ويكُلُ أَنْ صَدْمَةً لَشَعُورِهِ وَبِكُلِّ يَوْمٍ لِلْعَوَاطِفِ مَاتَمُ!
 فهل تراجع صاحبنا أمام هذه الصدمات؟ الجواب بالنفي! وهل
 حمل لهم صاحبنا مثل ما حملوا له من الحقد؟ الجواب بالنفي! عجب
 وأي عجب وما أجمل قوله لغاندي:

تَصُومُ مَكْفُوراً عَنْ إِنْثِمَ دُنْيَا يَسِيرُ بِهَا الْقَوِيُّ عَلَى الضَّعِيفِ
 أَبَتْ إِلَّا الْجَنُونَ بِكُلِّ عَصْرِ فَمَا أَدْنَى السَّخِيفِ إِلَى الْحَصِيفِ!
 بل أرى أن صاحبنا قد انتقص الحقيقة وكان حقاً عليه أن يقول في
 هذا الزمن (فما أعلَى السَّخِيفِ عَنْ الْحَصِيفِ)!

جاء في الحديث «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع
 فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». ونحن توسطنا
 فغيرنا ما رأيناه من هذه البيئة الجاحدة بلساننا، ثم سجلناه في هذه
 العجالة بقلبنا، ونأمل أن يغيره القراء بقلوبهم على الأقل.

١٧ - الشخصية في شعر أبي شادي

لم أعنَ بمطالعة شاعر عربي في ديوانه قدر ما عنيت بمطالعة أبي شادي في «أطياف الربيع»، ولعلني لا أستطيع أن أرد هذا إلى إعجاز فني وقفت عليه في كثير من قصائد هذا الديوان قدر ما أستطيع أن أردّه إلى ناحية تكاد تطبع كل قصائده بطابع لم يسبق إليه في الأدب العربي الحديث، بل أستطيع أن أوكد أن أدبنا الحديث إن كان ينقصه جانب فني مستقل فهو هذا الذي سدّ فراغه أبو شادي في ديوانه الأخير. فإما هذا الفراغ الفني الذي سدّه أبو شادي فهو الشخصية الأدبية. والذين يعرفون أبا شادي معرفة شخصية يستطيعون أن يروا أكثر كيف أن أبا شادي في ديوانه هو نفس أبي شادي هذا المعروف إليهم. لم يتوارَ عنهم في ديوانه في قليل أو كثير مما عرفوه منه من خلق ومن عقيدة ومن تكوين شخصي مستقل هو أظهر ما في أدبه وشخصيته معاً.

يرى الأستاذ مطران أن الدكتور أبا شادي «قرأ الشعر عربياً فأشجاه، وقرأه إفرنجياً فأشجاه، وطالع التواريخ ومنها بخاصة أصول الأدب الأغريقي، وقارن بين متباين المذاهب في البيان: سواء كانت تلك المذاهب خيالية وجدانية موضوعية لا تعدو حكايات حال عن نفسه كما هي في لسان الضاد، أم خيالية وجدانية موضوعية أساس الخيال فيها بناؤها على الحق أو الواقع أو ما يشبه بهما كما هي في اللغات الإفرنجية، وعلى أثر هذه المطالعات وجد أبو شادي في نفسه باعثاً شديداً على وجهة فنية جديدة يوليها شطره، فأحدث في العربية شعراً سلساً بالفاظه، قريب المأخذ بسهولة سليماً جهد ما تتسع المعايير المصرية...».

ويبين وبين الأستاذ مطران اختلاف شديد في بواعث الاتجاه الفني الذي أحدثه الأستاذ أبو شادي في العربية . فهو يرى أن المطالعات المختلفة للأدب الفرنجية والعربية قد أوحى إليه بهذا الاتجاه الفني الجديد، ولو أن هذا صحيحاً لرأينا في أدبه صوراً مختلفة لهذه الأدبيات المختلفة التي قرأها، فأما أدبه فهو صورة لنفسه بما فيها من إلهام ووجدان بل حتى لتكوينه الإنساني بما فيه من لحم ودم، فليس مطلقاً لهذه المطالعات أثر في تكوين هذه الشخصية الأدبية المستقلة .

وأستطيع أن أقدر مستنداً على المعلومات التي وصلت إليّ عن المراحل الأولى التي قطعها أبو شادي في مستهل تكوينه بأن المعنى الذي يعنيه الشاعر العربي :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامًا وَصَلَتْهُ الْكَرُّ وَالْإِقْدَامَا
إنما هو المعنى الذي يظهر أثره في أدب أبي شادي ظهوراً كان نتيجة لهذا الذكاء العبقري وهذا الشعور المتوقد الذي صير من صاحبه شعلة أدبية عالمية مستقلة في كيانها الأدبي كل الاستقلال .

وحسب المطالعات الأدبية إن كان لها من الأثر في هذه الشعلة ما للريح في استارة الضرام المستعرة واللهب المترامي الشرر، فأما أن يكون لها وحدها كل الأثر في تكوين الاتجاه الفني الذي ينتجه الدكتور أبو شادي في شعره فهذا ما اختلف فيه مع شاعرنا الجليل الأستاذ خليل بك مطران .

لكن هناك شيئاً أريد أن أنبه إليه في كلمة الأستاذ إبراهيم المصري في شاعرية أبي شادي فهو يرى «أن الفارق بين الشاعر والإنسان العادي هو أن الأول يستطيع أن يعبر للجميع عما يحس، أما الثاني

فلا يعبر عنه إلا لنفسه، ثم لأقرب المقرّين إليه مدفوعاً بعامل الحياة الوجداني الفطري الذي يفرض علينا كتمان عواطفنا وعدم الإفشاء بها إلا لمن يقدّرها ويفهمها. فالإنسان يجبل من فتح قلبه للآخرين، وأما الشاعر فيعرض هذا القلب في غير تبرم ولا استحياء... إلى أن يقول «ولذلك فإن جميع الناس شعراء وإن أوضعهم شأنًا وأضالم عقلاً وأحطهم نفساً وإحساساً قد يتنكر علينا متى عصفت به الأزمان، فيستحيل إلى رجل آخر يسمو في خياله وتعبيره وشعوره إلى أعلى مراتب الشاعرية».

والأستاذ المصري مصيب في هذا الأمر إلى الحد الذي يرى فيه أن الشاعر الذي «يتحدّى المجتمع ويجه العرف والتقاليد ولو ذهب آخر الأمر ضحية هذا الطيش المقدس!» بينما هو يختلف مع رأيه هذا كل الاختلاف عندما يرى أن هذا الشاعر الذي يجه التقاليد والعرف ويتحدّى المجتمع، ويقف له، هو والإنسان العادي سواء بسواء شعوراً بالحياة وإحساساً بنواحي الخير والشر فيها، حينما يقف هذا الإنسان العارف عمالة على شعور هذا الشاعر فيحس بإحساسه ويخضع لقلبه ويرى أن الحق والجمال، هو ما يرى الشاعر من الحق والجمال.

هذا الإنسان العادي، يراه الأستاذ المصري مستطيعاً أن يحس لنفسه بمواطن الحق والجمال في الحياة، وإن كان لا يستطيع أن يترجم عنها، والشاعر هو الذي يستطيع أن يؤدي هذه الترجمة وأن يكون صريحاً فيها وعندما يكون الفارق بين الشاعر وبين الإنسان العادي هو هذا، أصبح الناس في رأيه جميعاً شعراء لهم إحساس الشاعر وعقيدته!

ولكن! أيستطيع الكاتب الفاضل أن يتصور رجلاً يجتنب في صدره كل إحساسه فلا يستطيع أن يترجم عنه؟ كيف يعيش هذا؟! أو كيف يمتد الفارق بينه وبين هذا الشاعر الذي يحبه التقاليد والعرف ويتحدى المجتمع؟.

الواقع أن الشاعرية هي القدرة على الإحساس بالحياة والنفاذ إلى أعماقها عن طريق المنطق والعقل، وصياغة هذا الإحساس حتى ولو بأعواد الرباب، ليستطيع الإنسان أن يتعرف إلى نواحي الحق والجمال فيها. فاما أن الناس على درجة واحدة من الإحساس بالحياة وتعرف هذه النواحي فيها فهذا ما أخطأ الأستاذ المصري التوفيق فيه: فقد يعيش جيل بأكمله بأراء مشرع واحد، وقد يستطيع شاعر واحد أن يترك أكثر من عصر واحد متأثراً بإحساسه ومقاييسه الأدبية كما استطاع شكسبير وغيره من الشعراء العالميين.

ولكن متى إذن يوجد الشاعر؟ عندما يحس بإحساس يختلف وهذا الإحساس الأدبي المعروف، فيجبه إذن العرف والتقاليد ويتحدى المجتمع في كل ما أحسه المجتمع من نواحي الخير والجمال فيها. فالفارق إذن بين الشاعر والإنسان العادي هو في الإحساس بالحياة، لا في القدرة على الترجمة عن إحساسه فقط.

مثل هذا الرأي الذي يراه الأستاذ المصري شائع جداً في مصر والشرق، ولذلك فإننا نجد شعراء وأدباء، هم أكثر عدداً من الشعراء والأدباء في الأمم الأجنبية الأخرى، فإذا قرأنا هؤلاء الشعراء وأمضينا وقتاً طويلاً نتعرف فيه زحى الفن والجمال في أدبهم لم نخرج من كل من قرأنا لهم بأديب واحد أو شاعر واحد.

ولكنهم على حد هذا الأدب الذي يراه الأستاذ المصري يعتقدون

أن الشعر والأدب هو هذه الترجمة التي يختلفون في تلويحها وتظليل المعاني التي يسوقونها فيها، فلا ينقصهم إذن من أن يلبسوا مسرح هذه الجراءة التي يجبه بها الأدب العُرف والتقاليد، ليجبهونا نحن بما أصبح مبتدلاً من هذه التقاليد والأوضاع الاجتماعية المألوفة وهم أدباء وشعراء من هذا النوع المعروف بالراديو الذي يسمعا في كل حين أصدااء المغنين والمغنيات في غير كلفة ولا استحياء من تكرار هذا التبذل الماخن في هذه الأدوار الماخنة.

يرى الدكتور ناجي أن الشعر يحتاج إلى غربة، فهل يرى الأديب المصري أن هذه الغربة يستطيعها غير الأديب الفنان وأن هذا الأديب الفنان ليس مطلقاً بينه وبين الإنسان العادي هذا الفارق الضئيل الذي يراه الأستاذ؟.

فما نقرأ من دواوين شعرائنا وأدب كتابنا الكثير مما لو عسانا رددناه إلى أصله لأصبح هؤلاء الأدباء والشعراء وفي يدهم بعد هذه العملية المجتهدة من أدبهم القلم الذي كتبوا به والورق الذي كتبوا عليه وهذه القطرات من المداد التي صاغوا بها في أثواب جديدة آراء الأقدمين أو المعاصرين أو رأي الجيل نفسه، وتقاليد العرف بالذات.

فأما الإحساس الخاص الذي يستوحى منه الشاعر جمال الحياة وما فيها من فن وما فيها من دقة فهذا هو الذي يقبس منه شعراؤنا في تبرُّم وفي استحياء.

قد يدين الشاعر لرأي أو قد يبدو لعارفيه أنه يدين بهذا الرأي، وقد تظهر عليه مسوح متينة مختلفة من العقيدة والأخلاق، فإذا ما أمسك ببراعته سارت هذه البراعة وراء التقاليد المعروفة والتي لا يؤمن هو بالذات ولا بقليل منها، فشقت لها الطريق ووقفت كل مجهودها في

الدفاع وفي اللود عنها، وهكذا تستطيع أن تتحدث عن هذه اليراعة كما تتحدث أسطوانات الحاكي عن المادة أدواراً معروفة أو طيبة السماع عند طائفة من الجمهور.

والأديب في مصر وفي الشرق وفي كل بلد متأخر إذا لم تسعفه الجراءة، ليقف بها في أمته فيبلغها رسالته ووحيه وإيمانه، استحال أدبه إلى أصوات تنبعث من الهواء وتذهب في الهواء ولكن أهكذا أبو شادي في أدبه وفي شعره وبخاصة في «أطياف الربيع»؟.

تحدث معي إلى هذه الأشعار التي اختار عنوانها «طلاقة الفن» - صفحة ١١٦ من ديوانه :

إن شئت خذ ما أباح الفن من صوري
أو لا فدعها فلنّي المناقش الداري
مبهات لي أن أصوغ الفن زخرفة
فلن هذا غرور الواهم الزاري
مبهات أترك وقع الفن في خلدي
وأستعير بأنغام وأزهار
إن أصب شعوري كيف أعرفه
مثل الآتي ومثل الجدول الجاري
ما كان لي نقض شيء من طبيعته
ما في الطبيعة لو أنصفت من عاري
شعري أغاريد نفسي كيف أعرفها
أو لا فليست أغاريدي وأشعاري
والحق أن البيت الأخير أدل على معنى الشاعرية من كل ما قيل
فيها حتى الآن، والدكتور أبو شادي حين يستقيم أدبه على هذا

المعنى، إنما يشيد في الأدب العربي الحديث بناء الشاعرية، بعد أن
كاد هذا البناء يحتفظ بعهدته أيام المتنبي وأبي العلاء.

وإذا كان الأدب المصري لم يوجد بعد أديبه، فهذا أبو شادي في
«أطياف الربيع» يرسم ألوانه الزاهية بين آداب الأمم المعاصرة، ولهذا
التأج ولا شك نصيبه من التوفيق والخلود، بقدر ما لكل عمل فني
انجماه نحو الخدمة العامة والإحساس العالمي المستقل.

١٨ - نقد وملاحظات :

إن إنصاف الشعراء المعاصرين بعضهم لبعض غير مألوف حتى جاء أخيراً مجهود (جمعية أبولو) للتنويه بالمغمورين من الشعراء وللإشادة بأعمالهم في مجلتها أمراً غريباً يكاد لا يصدق في مثل بيئتنا، وقد زاد من قيمته عناية الجمعية بإظهار شاعرنا المتواريات كسهير قلمايوي وجميلة العلايلي. والآن لنرى ظاهرة جديدة طيبة من التجاوب بين شيوخ شعرائنا وشبابهم، وهذه الظاهرة من علامات الصحة المنشودة في أدبنا الذي ضاع الكثير منه سابقاً في مخاصمات طائشة لا جدوى منها للأدب.

إن محاضرة شاعرنا الكبير الأستاذ محرم مثال عالٍ للروح النبيلة الذي كثيراً ما حلم به الأدباء من التعاطف والتجاوب. هي صورة صادقة لنظرات وعواطف شاعر متفوق نحو زميل له يخالفه في مذهبه ويحانس في نبوغه، وهي مثال للإنصاف الذي لا يتعارض واحتفاظ كل شاعر بشخصيته وآرائه الخاصة.

يقول الأستاذ المحاضر: «إن الدكتور أبا شادي حركة أدبية شديدة البقظة، دائمة النشاط، تشغل قسماً كبيراً في موسوعاتنا الفكرية، وتحتل منطقة ممتازة من مناطق حياتنا العقلية، فنحن حين نكبر هذه الحركة أو نشيد بذكرها، لا نفعل شيئاً من ذلك تطوعاً أو مجاملة، ولكننا نفعله ونفوسنا مأخوذة بقوة القاهرة، وسلطان كبير... وقد أصاب أستاذنا محرم في هذا الحكم على صديقه الشاعر بل هو حكم شائع مردّد، ولعل الدكتور أبا شادي نفسه يشعر بقوة نفوذه الأدبي بل

أجزم أنه يشعر به لأنك تلمح في شعره الحسرة اللاذعة من وراء هذا الشعور... أنه يعرف مواهبه وقوته الأدبية ويعرف نفوذه الفكري والعلمي في شتى النواحي، وهو يعمل وينجب بلا انقطاع مدفوعاً بوحى قاهر لا يستطيع مغالته، ومع كل هذا يشعر بعدم الرضى عن جميع أعماله، وبالسخط على البيئة التي لا تساعد على استغلال مواهبه الاستغلال الأمثل، بل تدعه ينفى بهن الحاجة والعذاب والكفاح، متفرجة لاهية أو متبرعة بأمداح لا طائل من ورائها، بينما كل ما يعنيه بلوغ المثل الأعلى الذي يسعى إليه! ترى هذا الالم المحرق واضحاً لاذعاً في قصيدته «الجحود» - ص ٥٢ من ديوان (الشعلة) - وهي من أقوى شعره، وفيها يقول:

وَكَمْ مَفْرَقٌ خَصَنِي بِالمَدِيحِ	تَحْيَلُهُ مِثْلُ هَاجٍ يُغَالِي
أَفْضَى الحَيَاةِ عَلَى غَصْبَةٍ	وَأَسْفَى المُمُومِ عَلَى أَيِّ حَالٍ
وَمَنْ لَمْ يَطْلُقْ أَنْ يُلِّ الصَّدَى	فَهَيْهَاتَ يَغْنَى بِنَهْرِ زَلَالٍ
مَرْضَتْ وَقَدْ بَخَلُوا بِالدَّوَاءِ	وَجَادُوا بِأَوْسَمَةِ لِلْمَعَالِي
وماذا انتفاعي بأمداحهم	إذا مِتَ مِنْ حُرْقَةٍ وَاشْتَعَالَ؟!

فهذه الأبيات النارية زفرات مشتعلة من شاعر متفوق، بل من قوة أدبية كبرى لم تعرف بعد الدولة ولا الشعب استغلالها بحكمة وإنصاف فذهبت معظم جهودها سدى، وبقيت طاقاتها مقبورة وما زالت مقبورة، وصاحب هذه الطاقة يشعر بها في ألم عمض، ويستثيره المثل الأعلى الذي يتطلع إليه فيعاني العذاب بين ما يعانيه من القيود والجحود من ناحية وبين توبه الذي لا يكمل من ناحية أخرى، والخاصة يعجبون به والأصدقاء يصفقون له، ولكن كل هذا الإعجاب وذلك الاستحسان لا ينهض بأعماله الثقافية الجليلة خطوة

واحدة إلى الأمام، لأننا اعتدنا الأقوال والتهليل ولم نعتد بعد التساند العملي المفيد. إزاء هذا الشعور الأليم يقول أبو شادي في ديوانه (الشعلة) من قصيدته «موت وحياة» - ص ٢٤ :

دَفَنْتُ أَسِيفاً عَزَمْتِي وَمَوَاهِبِي
لَدُنْ عَدَمٍ ذَنْبِي هُمُومِي وَأَعْمَالِي
وَحَيّاً أَخْلَانِي جَهُودِي وَمَا ذَرُوا
جَهُودِي الَّتِي مَاتَتْ لِحُزْنِي وَأَقْلَابِي
فَيَا مَوْجَ مَت حَوَالِي فَمَوْتِكَ رَاحَةٌ وَمَوْتُكَ مَرَأَةٌ لِمَوْتِي وَإِذْلَالِي
وَمِنَ الْحَقِّ أَنَّ الدُّكْتُورَ أَبَا شَادِي ظَاهِرَةٌ مَنْقُطَةٌ النُّظِيرِ فِي الثَّقَافَةِ
العربية: فهو قوة مبتكرة مدهشة في نواح شتى من الأدب والعلم
والفن وآثاره بعيدة المدى في كل مجال وجه إليه نشاطه، وقد انتفع بها
الكثيرون انتفاعاً عظيماً، ولكنه انتفاع لقومه دون ما يشتهي هو أن
يكون. ومن أجل هذا واجه أسمى حملات الحسد عليه من المفرضين
والأنانيين وهي حملات لا تكتفي بالأقوال بل بين أسلحتها الدسيسة
والعرقلة وشتى ضروب الإساءة، وتجد صدى كل هذا بارزاً لافتاً في
شعر أبي شادي، فهو شاعر إنساني صافي النفس لا يملك أكثر من
البث لآلامه إذا ملك غيره أن يقابل الأذى بالأذى...

ذكرني أبو شادي الذي يقول فيه الأستاذ خليل مطران:

أسمع فادِي وطن	بنفسه	وكلُّه
يفوق حُبَّه له	عبادة	المؤله

والذي يكاد لا يطرق النوم أجفانه، مسدياً منجياً لخير الأدب
والعلم والفن ولخير الوطن والإنسانية، والذي يقول فيه الشاعر الفنان
الدكتور إبراهيم ناجي (ص ١٣٧): «... هو شعلة حقاً، هو نور
ونار، هو قبس حي، هو شعاع طواف متميز بالقلق، متفرد بالهداية،
ضارب في مجاهل الليل مترام فوق عباب جيّاش مترام، هو ألق

يَبَاهُونَ بِالْإِيْذَاءِ حَتَّى كَأَنَّمَا
يَسْزُونَ فِي الْمِهْجَاءِ (عنتره العسبي) !
عجبتُ لشمسٍ أشرقت في سَمَائِهِمْ
وَقَدْ خَلَقُوا خَرَباً عَلَى النُّورِ وَالشُّمُسِ !

حقيقة إنها لفضيحة أدبية لجيلنا أن يعاني مثل أبي شادي ما يعانيه
من خذلان وجحود ومحاربة، وما يتبع ذلك من عذاب وخصاصة
وإرهاق لا يحمد. وإذا كان شاعرنا قد خلد في شعره تقديره لمن آزره
وأحبوه، فهو إلى جانب ذلك فائض اللوعة والبث إزاء من حاربوه
وتفتنوا في انتقاصه وإيذائه فأساؤوا في الوقت ذاته إلى خير وطنهم،
وسيقى هذا الجانب من شعره كسحب كثيفة وداء في سماء الأدب
العصري وفي سيرة أهليه.

قلت إن الدكتور أبا شادي ظاهرة منقطعة النظر في الثقافة العربية
وهو بسبب ذلك يذوق الحنظل من يد البيئة المحسودة الجاحدة كما ذاقه
من قبل بيننا الموسيقار الفنان المرحوم الشيخ سيد درويش . فمات
ونحن في غفلة عنه، فلم نعرف قيمته الحقيقية إلا بعد وفاته . وفاتنا
الانتفاع الوافي به . ولو أن الدولة أو الأمة عرفت كيف تشمل جهوده
الرائعة برعايتها الصحيحة، وصدّت عنه الفقر والحاجات الدنيوية
المعاشية، لكان لنا من آثار سيد درويش كنز عظيم للأغاني والموسيقى
العربية . ولكن للأسف فقدنا الرجل، وقبرت مواهبه في حياته، ولم
نغنى إلا القليل من آثاره . وإني أتمنى لشاعرنا العمر الطويل والجهود
الموفقة في النهاية، ولكن أخشى أن تتكرر المأساة الآن نحو فنان في
الدروة من فنه، نحو شاعر عظيم يسخ بالشعر الصادق، ونأى بيته

الفاشمة - أو اغرارها الأثمون - الإصابة وتعذيبه ! وقديماً قال أبو شادي :

دَعْنِي أَعِشْ غَيْرَ مَعْرُوفٍ، فَنَافِيَةٌ مَا
أَجْنِيهِ بِالذِّكْرِ أَعْدَائِي وَحُسَايِي

زكي أبو شادي شاعر فحل مستوعب للحياة، دائم التطلع إلى ما قبل الحياة وإلى ما وراء الحياة! وإذا تأملت جميع دواوينه وجدت هذه الروح متمشية فيها، لا تستطيع أن تخطئ معالها، ورأيت يفيض بالشعر المطبوع، وكله من النسق العالي الممتاز، فلا غرابة إذا ثار سخط الحاسدين والجاحدين ففتنوا في محاولة انتقاصه والإساءة إليه. . وربما كان معيناً لهم ما تجده في شاعرنا من الوداعة الحقة والتسامح المتنامي، بل والمساعدة على الإصغار من نفسه بروح الصوفي المتجرد، فيطمع ذلك غير عارفيه في التهجم على أدبه. . . وأنت إذ تجالسه لا تشعر أن شيئاً من ذلك يحمه، ولا أن الدهماء تعنيه بحال من الأحوال، وإنما كل ما يعنيه أن لا يعاق بشئ العراقيل دون بلوغ المثل الأعلى الذي يرمي إليه في خدمة الثقافة الإنسانية وفي التسامي بأدب أمته، ومن هنا نشأت حسرته على جهوده المضنية وعلى مواهبه المدفونة. ومع الفارق في الأخلاق والطباع والاتجاهات، يكاد يعاني أبو شادي من الجحود مثل ما كان يعاني الشاعر الفحل ابن الرومي في عصره، ذلك لأن الشاعر المستوعب الشامل النظرات قليل الظهور بين جيل وآخر، فهو لذلك عرضة للإعجاب به وللإستهجان في أن، وعلى الأخص متى ظهر في بيئة جامدة ألفت لونها واحداً من الأدب فلم تستطع هضم سواه، وكرهت ما عداه وإن يكن لذيذاً فاخراً!

أقلب صفحات ديوان (الشعلة) فتكاد تستوقفني كل صفحة من صفحاته بما فيها من ألوان العواطف والخيال، وبما فيها من رسالة روحية سامية للحق والجمال. وتغر أمامي صور شتى من النهاذج لشعر أبي شادي: شعره في صباه، وشعره في كهولته؛ فأجد فيها جميعاً روح الشاعر الإنساني المتصوّف الحساس، المفتون بالحياة والجمال فتنة المستمتع والزاهد في آن؛ هنا الشاعر الإنساني، والشاعر القومي، وشاعر الطبيعة، وشاعر النسك، والشاعر البوهيمي، والشاعر الفيلسوف، وشاعر العواطف الجامعة، والشاعر السمع الوديع، وشاعر التصوير، والشاعر الغنائي، والشاعر الدرامي؛ ذلك لأن أبا شادي يرسل نفسه على سجيتها، ويعتقد أن حرية التعبير النافذ مع الشخصية القوية والعواطف القوية هي أسس الفن، وهو يرب نفسه للفن ويندمج فيه كل الاندماج بشعره، فيخرج لنا ألواناً شتى من هذا الشعر هي في الواقع ترجمة حياته بلسان عواطفه، وهي صور التجارب المتنوعة بينه وبين الحياة. هذا هو أبو شادي الشاعر الذي يعد إكثاره بمشابة إقلال نسي، نظراً لتفاعله الوجداني المستمر ولشاعريته التي لا تهدأ. فهو ظاهرة نادرة في الشعر العربي، سيعرف خطرهما الكامل فيما بعد، ولن يضرها بتاتاً ما يتناولها به الآن فقهاء النقاد المغرضين من المآخذ الواهية التي هي أبعد ما تكون عن تفهم روح الشعر وعن النقد الشعري الصحيح.

إن هذه الصفحات الممدودة لن تكفي بحال لأي تعقيب يراد منه تحليل نفسية أبي شادي وشعره ومواهبه وجهوده الأدبية في ربع قرن بل لا تكفي حتى للإشادة الواجبة بديوانه الأخير «الشعلة» وإن كان الأستاذ محرم قد وفاه حقه من النقد. بيد أن لي بعض الملاحظات النقدية على هذا الديوان، وقد لا يخلو سردها من فائدة:

(١) يرى الأستاذ محرم أن الدكتور أبا شادي يعرف للقديم حرمة «ويتأثر بما فيه من روعة، وبما له من جلال، ولكنه من فتنه الأدبية التي استولت على عقله ونفسه، وجرت في عروقه مجرى الدم، لا يكاد يقنع من هذه الصور الشعرية إلا بالجديد المبتكر، فهو مولع أبداً بهذا الجديد المبتكر، يروض نفسه عليه ويطالب به سواء». ولكني كنت أودّ لصديقنا الشاعر أن يتعدّد كعاداته عن الأساليب العربية العتيقة وأخص بالذكر قصيدته «الناسخ والمنسوخ» - ص ٩٨ - وإن كنت لا أنكر ما فيها من قوة العاطفة الحيّاشة، ولكني أؤثر عليها ألف مرة قصيدته «الضحك الباكي» - ١٠٩ - التي نوه بها الأستاذ محرم تنوعاً خاصاً. قد يدعو شعر الحماسة إلى استعمال الألفاظ الضخمة الرنانة في بعض المواضع، ولكني أؤمن بالسهولة في التعبير وحدها فهي أبلغ رسول من رسل العاطفة.

(٢) لعل صاحب (الشعلة) أكثر شعرائنا المعاصرين افتتاناً بالمرأة، وقد كان له أثر محمود في إنشاء تقاليد جديدة في الموضوعات والتعابير خاصة بها. وافتتانه بالمرأة - كيفما كان لونه - يعني في الواقع احترامه لها، ومع هذا وجدته يسقط من ديوان (الشعلة) غير قليل من شعره الصريح الجميل في المرأة. ولما كان شاعرنا معروفاً بجراته وشجاعته الأدبية فنحن لن ننفر له هذا الحذف، ونرجو أن نرى ذلك الشعر مثبتاً في ديوانه الآتي (أطراف الربيع)، فحسب الشعر العربي مصاباً بنفسي غزل المنكر فيه وما يصحب ذلك من الانحراف والتدنّي في الشعور، ونحن الآن أحوج ما نكون إلى مثل أبي شادي في ذوقه الفطري السليم وصراحته المهيبة ليصحّح بغزلياته الحلوة الممتعة المقاييس الفنية في الشعر العربي الحديث وليوجه الفنّانين إلى المرأة التوجيه الصحيح حتى يقدر جمالها جسماً وروحاً كما يجب أن يقدر.

(٣) في ديوان (الشعلة) قصص رائعة وصور ميثولوجية بديعة سيزداد الإعجاب بها كلما تثقفت البيئة، ولكن لماذا يمل صديقنا الشاعر من التمهيد لكل منها بسطور شرحية قليلة حتى يتذوقها ويستمتع بها جميع القراء كما يفعل الأستاذ العقاد نحو الغريب من شعره؟.

(٤) يؤثر الأستاذ محرم الأساليب الشعرية المألوفة على الأساليب الرمزية، وإن أوافق الأستاذ محرم على ذلك ولكن في حدود المناسبات، ومن منا ينسى الأوبرا البديعة (الآلهة) التي جمعت بين الثقافة العالية والمتعة الفنية؟.

ثم من منا ينسى الفرائد الرمزية الشائقة في هذا الديوان وفي غيره، مثل «اللهيب المقدس» و«الأطيف» و«اعتراف إبليس» و«تاج الشوك» ونحوها؟.

(٥) مما يؤثر للدكتور أبي شادي اقتراحه ومساعيه لاقتباس فرائد الموسيقى الأجنبية وتطبيق أغاني عربية جديدة عليها جداً في تهذيب أذاننا، حتى تُؤلف هذه الموسيقى الأجنبية الرائعة فتتلفح بها أذواقنا وحتى يؤدي ذلك تدريجياً إلى التطور في الإبداع الموسيقي العربي، وأراه في ديوان (الشعلة) يرمي إلى حدث آخر ولكن في الشعر، إذ لا يزال مصرأ على استغلال الأوزان العامة كالزجل ونحوه في خدمة الشعر العربي، آملاً أن يقضي بذلك إلى حد كبير على الشعر العامي. وعندني أن هذا شبه محال ما لم ينظم الزجل والموال العربي بأسلوب سهل جداً. وما لم يتكاتف الشعراء على مؤازرة الدكتور أبي شادي في ذلك، وإلا ذهبَت هذه الجهود سدىً، ولم تبق لها سوى قيمة تاريخية للمحاولات والنماذج الأولى.

وإن خير ما أختتم به هذا التعقيب في هذا الموقف - موقف الإكبار
 لشاعرنا الموهوب وموقف التألم من غفلة بيته - قول أبي شادي نفسه
 في قصيدته «شتاء الحياء» (ص ٥٥ من ديوان الشعلة).

نَشْجَعُ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْمَعْنَى	فقد بات الشتاء دُجَى يطول
تَحْفَ بِكَ الْعَوَاصِفُ وَهِيَ تَكُلُ	ويجمعك التناوُحُ والعويل
تَنُوحُ عَلَى الْفُصُولِ وَقَدْ تَوَارَتْ	بِأَلَاءِهَا تِلْكَ الْفُصُولُ
كَذَلِكَ أَنْتَ يَا قَلْبِي بِعَصْفٍ	تَزُولُ الْحَادِثَاتُ وَلَا يَزُولُ
وَمَنْ طَبَعَ الشَّجَا فِيهِ انْطِبَاعاً	أَيُفْسِلُهُ التَّرْسُومُ وَالْهَدِيسُ؟
وَقَدْ غَمَرَ الْأَسَى شَقَّ الْمَجَالِي	فَقَابَ الْبَشْرُ وَالطَّبَعُ الصَّقِيلُ
كَمَا هَوَتْ الثَّلُوجُ عَلَى مُرُوجِ	فَكَفَّنَتْ الْحَزُونَهُ وَالسَّهُولُ
تَشِيمُ بِهَا الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ	وَتَلْقَى الدَّرُ غَابَتُهُ الْوَجُولُ
كَأَنَّ الْأَرْضَ عَمَرَهَا نِفَاقُ	وَأَفْسَدَ نَوْرَهَا نَوْرُ دَخِيلُ
تَشْجَعُ وَاحْتَمَلْ يَا قَلْبُ فَرْدَاً	فَلَيْسَ يَدُومُ لِلْعَانِي خَلِيلُ
وَلَيْسَ بِمَخْضَعٍ لِلدَّهْرِ حَصْنَاً	سِوَى مَنْ لَمْ يَرْغِه الْمُسْتَحِيلُ!

- ٢ -

لعلَّ أجلَّ غرض بلغه الشعر أثناء أداء رسالته في عصر الحضارة
 العربية أنه استطاع أن يتقل بنوع من عبادة الجمال إلى السواد، فكان
 النشيد يلوح مع الزهر وذكريات ليالي الانس في كل مكان، كأن رغبة
 المدينة في الوصول إلى هذا المثل الأعلى من تذوق الفن والاستمتاع به
 كانت الأكليل البديع الذي تَوَجَّ به تاريخ العرب في الأندلس وبغداد
 والتاريخ غيور على تقاليدِه وعناصر مجده فلم يترك للديمقراطية

العصرية أن تأتي بشيء جديد في هذا الصدد، فإنها بمقدار ما أباحت الحرية المطلقة للتذوق في الزيّ ووجوه التظرف احتفظت للشعر أن تطيب به كل نفس وأن تصل ثماره إلى تلك القلوب الكبيرة التي علقت رجاءها في المستقبل على كل رسالة إنسانية مجيدة. ونعتقد أن مصدر الترحيب والاحتفال بالشاعر إنما يرجع إلى أن كل مرحلة في التاريخ منقطعة عن الشعر إنما هي مرحلة غامضة.

هذه عقيدتنا، ولا أثر في هذه العقيدة للريب، وليست تقبل الجدل.

إنني كلما تصفّحت ديوان شعر رائع تصورت أني أطل على حديقة منسقة أو بهو أنيق أو كاني أتأمل لوحة لمصور أستاذ...

وهذا ما حدث لي في الحقيقة عندما جعلت أقلب صفحات الديوان الذي أخرجته للناس الشاعر الرقيق أحمد زكي أبو شادي باسم «الشعلة» وفي هذا الاسم شيء من معاني الجدد وإشعاع الفن، وهو يرمز إلى تلك الزعامة التي يتولاها رسول يتصف بالمحبة والإخلاص ويختار الشعر والغناء قرآنه.

وانك لتلاحظ أول ما تتلو شعر أبي شادي أن قريحة الشاعر تريد أن تمجد بأكثر مما قال، وفي هذا السبق في أشواط الابتكار وإفراغ المعاني الطريفة في صيغ وتراكيب جديدة ذهب بالشعر المصري إلى غايات بعيدة، وعادة الشعر العربي أن يقول تأثيراته ولا يتكلف تصوير الحالة أو المنظر إلا في النادر، وميزة شعر أبي شادي في هذا الفن بالتذوق أنه مصور لا يرى أن يكون الجمال في جزء من الصورة بل يجب أن يشيع فيها.

وتلاحظ في شعره ذلك التناسب العجيب بين الذوق والنفس

والقريحة، وقد أغناه ذوقه عن أن يدين في عبادته للشعر لشيء من
الأمثلة القديمة، فهو من هذه الناحية خالق.

أما النفس الشعري الذي ساوى أبا شادي بعدة من شعراء
المولدين فإنه خلاصة ذلك التكوين الثقافي الجليل الذي يتمثل في
رجل عصري يعيش بعواطفه، ويرى في كل ظاهرة من ظواهر الحياة
ما يلائم تصويره، فهو في الحقيقة من عباد الفن العصريين.

وأنت إذا تمثلت الأمواج الهادئة حين تمتد على الرمال في الأصيل
استطعت أن تمثل قريحة أبي شادي التي تفيض بالشعر وبالمعرفة في
أمثلة شتى كلها يرجع إلى نزوع الشاعر إلى «الإيديال».

فهرس المراجع

- ١ - محاضرة أحمد محرم عن «أبو شادي».
- ٢ - ديوان «الشعلة».
- ٣ - أبو شادي في الميزان.
- ٤ - مجلة الدارة، الفصل الثالث ١٤١٣.
- ٥ - مجلة الشعر، يناير ١٩٩٣.
- ٦ - مجلة إبداع، يناير ١٩٩٣.
- ٧ - مجلة إبداع، فبراير ١٩٩٣.
- ٨ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٩ - ديوان عنتره العبي.
- ١٠ - العمدة لابن رشيق.
- ١١ - معاني القرآن للفراء.
- ١٢ - ديوان النابغة الذبياني.
- ١٣ - عيار الشعر لابن طباطبانا.
- ١٤ - الوساطة للقاضي الجرجاني.
- ١٥ - طبقات الشعراء لابن قتيبة.
- ١٦ - الطراز للعلوي.
- ١٧ - الإيضاح.
- ١٨ - زهر الآداب للحصري.
- ١٩ - إعجاز القرآن للباةلاني.
- ٢٠ - الجمان في تشبيهات القرآن - ابن نافتيا البعدادي.

- ٢١ - شعراء الجاهلية والإسلام .
٢٢ - ديوان أبي تمام .
٢٣ - الكشف للزغشري .
٢٤ - نقد الشعر - ابن قدامة .
٢٥ - التبيان للعسكري .
٢٦ - الموازنة .
٢٧ - الموشح للمرزباني .
٢٨ - المقتضب للمبرد .
٢٩ - معاني القرآن للأخفش الأوسط .
٣٠ - المعلقات السبع .
٣١ - الأماالي الشجرية .
٣٢ - شرح الشواهد للسيوطي .
٣٣ - تشبيهات القرآن .
٣٤ - خزانة الأدب للبغدادى .
٣٥ - الصناعتين لأبي هلال العسكري .
٣٦ - شرح القصائد السبع .
٣٨ - البرهان في علوم القرآن .
٣٩ - جمهرة أشعار العرب .
٤٠ - سر الفصاحة .
٤١ - لحن العامة للزبيدي .
٤٢ - الشعر والشعراء .
٤٣ - المثل السائر لابن الأثير .
٤٤ - الكامل للمبرد .
٤٥ - شرح الكافية لابن الحاجب .

- ٤٦ - تفسير الطبري .
- ٤٧ - مجاز القرآن لأبي عبيدة .
- ٤٨ - ديوان الحماسة للتبريزي .
- ٤٩ - زهر الآداب للحصري .
- ٥٠ - شرح المعلقات السبع للتبريزي .

تم فهرس المراجع بحمد الله
والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين

الفهرس

٣ مقدمة
	أحد زكي أبو شادي
١٥	١ - حياته :
١٨	٢ - شعره :
٢٥	٣ - مؤهلات أبو شادي :
٢٧	٤ - شخصية أبو شادي :
٣٠	٥ - شعره الإنساني :
٣١	٦ - شعره الوطني :
٣٥	٧ - شعر العروبة :
٤٠	٨ - شعره الفلسفي :
٤٢	٩ - الطبيعة والمرأة في شعره :
٤٤	١٠ - شعر الأبوة والطفولة :
٤٨	١١ - شاعر الديمقراطية :
٥٠	١٢ - شعره الغنائي :
٥٢	١٣ - شعره القصصي والدرامي :
٥٣	١٤ - لغته وأساليبه :
	نقد وملاحظات
٥٦	١٥ - الأطياف في شعر أبي شادي :

٦٤	١٦ - السخط على البيئة في شعر أبي شادي :
٧٩	١٧ - الشخصية في شعر أبي شادي :
٨٦	١٨ - نقد وملاحظات :
٩٩	فهرس المراجع :
١٠٣	الفهرس :